مكتبة البنين
قسم الدوريات

مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية
جامعة قطر

السنة السادسة - العدد السادس
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

المكتبات في الحضارة الإسلامية

دراسة في المكتبات الأكاديمية والبحثية

د. حامد الشافعي دياب
جامعتي القاهرة وقطر

بسم الله الرحمن الرحيم

المكتبات في الحضارة الاسلامية
دراسة في المكتبات الأكاديمية والبحثية

الدكتور / حامد الشافعي دياب
جامعتي القاهرة وقطر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ... وبعد .

مقدمـــة :

تعتبر المكتبات على اختلاف انواعها وتابين انماطها من الركائز الاساسية والدعائم الرئيسية التي تشاد عليها صروح الحضارة بصفة عامة والحضارة الاسلامية بصفة خاصة ، ذلك انها لعبت دوراً جد خطير في تاريخ هذه الحضارة وعملت على تقدمها ، عن طريق نشر العلوم والمعارف وتوطيد الصلات العلمية بين المسلمين في أرجاء الامبراطورية الاسلامية من جهة ، وبينهم وبين شعوب اوروبا من جهة اخرى .

لقد اهتم المسلمون الاوائل بالمكتبات على اختلاف انواعها واعتنوا بها عناية فائقة من حيث الكم والكيف ، فأقبلوا على شراء الكتب واقتنائها ، وانشاء المباني وتخصيصها ، ورصد الاموال وتدعيمها ، وتعيين القائمين عليها من العلماء والادباء ورفعهم الى سلطة الحكم ومجالس الخلفاء ، حتى بلغت المكتبات في عهدهم شأواً كبيراً ، ولم يأت هذا عفوا ولكن كان نتيجة تطور طويل اخذ سمته منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وامتد عبر القرون حتى أثمر ثمره وأتى أكله باذن الله في دار الاسلام .

ومن ثم يمكن القول ان المكتبات عند المسلمين نشأت مع المساجد التي لم يقتصر دورها على العباده فقط ، بل كانت مراكز للتزود بالعلم والمعرفة .

وعلى هذا الاساس تعتبر المساجد أول أنواع المكتبات ظهورا في الحضارة الاسلامية ، فقد جرت العادة ولاتزال أن يلحق بمعظم المساجد مكتبة تحتوي على مجموعات من الكتب ذات الصبغة الدينية بالاضافة الى المصاحف الشريفة .

وظهرت وانتشرت – ابان ازدهار الحضارة الاسلامية – جميع أنواع المكتبات الموجودة في عصرنا هذا تقريباً ، مثل مكتبات الدولة والمكتبات الخاصة بالأفراد ومكتبات الخلفاء والوزراء ، والمكتبات العامة ، والمكتبات المتخصصة ، ومكتبات المدارس والمكتبات الأكاديمية التي ألحقت بالمعاهد العلمية آنذاك .

وتقف المكتبات الأكاديمية على قمة الهرم بالنسبة لنوعيات المكتبات الاخرى ، باعتبارها العمود الفقري لمؤسسات التعليم والبحث العلمي ، وعلى أساس أنها تقدم خدمتها للعلماء من الباحثين والدارسين من الطلاب وهم خلاصة المجتمع والعقل المفكر للأمة .

ولم يقتصر دور المكتبات الأكاديمية عند هذا الحد ، بل كانت المصدر الأول الذي يؤمه العلماء والادباء لينهلوا من منابعه ، لذلك كانت هذه المكتبات نواة الجامعات الاسلامية المبكرة ، كبيت الحكمة في بغداد ، ودار الحكمة في القاهرة ، ومكتبة الامويين في قرطبة ، وكانت تقوم هذه المكتبات بمهمة المعاهد العلمية في العصر الحديث ، علاوة على ما تؤديه دور الكتب في الوقت الحاضر من خدمات مكتبية ومعلوماتية .

وللمكتبات في الحضارة الاسلامية تاريخ طويل ، بدأ منذ بدأ الانسان يعمل ويفكر ويسجل أفكاره على وسائط من السهل حملها ومن الميسر حفظها ، اذن فتاريخ المكتبات تاريخ للحضارة الاسلامية ، يسجل حركاتها ويتتبع تطوراتها ، ويعرض مراحل نموها وازدهارها ، ويسجل فترات تلاشيها وانقراضها ، ويبين مدى التلاقي والتعاون بين الحضارت المتعاقبة .

وتعتبر المكتبات من اكبر مصادر المعرفة وأهم مرفق من مرافق المعلومات في أي مجتمع من المجتمعات ، ومن ثم فهي دليل الحضارة والتقدم ، لدرجة أن يقاس رقي أمة من الأمم أو تأخرها بكثرة ما بها من مكتبات وما تلقاه من عناية ورعاية ، أو ندرتها واهمالها واعتبارها

شيئا غير ذي قيمة ، معنى ذلك أنه كلما كثر عدد المكتبات في قطر من الاقطار ، وكلما كثر عدد الكتب فيها وتنوعت محتوياتها ، وكلما كثر عدد رواد المكتبات وزاد الاقبال عليها من جانب القراء والباحثين ، كان كل ذلك دليلاً على رقي هذا القطر وانتشار التعليم بين أبنائه ، والعكس صحيح كل الصحة .

من هذا المنطلق كانت دراسة هذا الموضوع ، ألا وهو البحث في تاريخ المكتبات الاسلامية وخاصة المكتبات الأكاديمية ، لذا يجب التنويه – بل التأكيد – على أن البحث في تاريخ المكتبات الاسلامية ليس هروباً من الواقع الى الماضي ، بل يعتبر الماضي هو أساس هذا الحاضر أو الواقع الذي نعيشه الآن ، فاذا كنا نفخر بحاضر المكتبات في عصرنا هذا ، فما أجدرنا أن نقف على ماضيها – وخاصة في الحضارة الاسلامية – لانه مهد دون نزاع لهذا الحاضر ، وهما معا يفتحان السبيل أمام المستقبل .

فالمكتبات : ماضيها وحاضرها وآتيها ، سلسلة منتظمة ومتكاملة الحلقات متراصة اللبنات ، متساوية الأضلاع ، من الصعب أن نشير الى ضلع منها ، دون الاشارة الى الضلعين الآخرين ، ومن غير المفيد نفهم زواية منها دون فهم الزاويتين الآخرتين .

وخلاصة القول أن دراسة تاريخ المكتبات الاسلامية وخاصة الأكاديمية تتبع أهميتها في نواح كثيرة

منها : أن تاريخ المكتبات مرآة عاكسة لتاريخ الحضارة الانسانية بشكل عام والاسلامية بشكل خاص ، ودعامة من دعاماتها ، ومنها أن تاريخ المكتبات في قطر ما دليل على الحالة العقلية والفكرية في ذلك القطر وانعكاس لها ، ومنها أن تاريخ المكتبات وازدهارها يعد دليلاً بارزاً على رقي عصر من العصور وانطلاقه من مجال العطاء العلمي والابداع الثقافي والعكس صحيح . علاوة على أن الكتابات والدراسات في تاريخ الكتب والمكتبات – وخاصة في الحضارة الاسلامية – مازالت محدودة وتحتاج الى دراسات تكشف عن الجوانب المتعددة والغنية لها وترسم صورة واضحة مشرفة علمية لنشأتها ولتطورها .

ومن ثم – واستقراء لما سبق – فلا غرو أن يخصص هذا البحث عن موضوع المكتبات الأكاديمية في الحضارة الاسلامية ، باعتبارها واحدة من المعالم الرئيسية لهذه الحضارة في أزهى

عصورها ، في محاولة لإماطة اللثام عن الجوانب المشرقة في تاريخ هذه المكتبات ، مع بيان دورها الحضاري الذي لعبته في ازدهار الحضارة العربية والاسلامية والعالمية ، بما فاضت بخيرها على شعوب اوربا متخطية في ذلك حدود المكان والعنصرية ، لتمد يد العون لهذه الشعوب وتزيد من حصيلة ابداعها الفكري والثقافي .

ولعل المنهج المناسب لدراستنا هذه هو المنهج التاريخي القائم على استرداد الماضي من خلال النصوص والاشارات المتوفرة في المصادر المختلفة ، ودراستها وتمحيصها بغية التآلف بينها ، لرسم صورة متكاملة الأركان – قدر الأمكان – لموضوع المكتبات الأكاديمية في الحضارة الاسلامية من زواياه المختلفه ، ثم استنباط ما قد يعن من خلال هذه النصوص عن الجوانب المشرفة لهذه المكتبات .

قبل الاشارة الى العناصر التي يعالجها هذا البحث ، يجب التنويه الى المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها ، وهي في الحقيقة كثيرة من حيث الكم ومتنوعة من حيث الكيف .

ومع ذلك يمكن تصنيفها – وفق درجتي الأصالة والأهمية – إلى ثلاث فئات :

الأولى : مصادر أصلية : وهي كتب الأولين السابقين من كبار المؤلفين والأدباء ، من أمثلة : الفهرست لابن النديم ، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم لابن جماعة ، صبح الأعشي في صناعة الانشا للقلقشندي ، .... الخ . وهي مصادر اعتمد عليها كل من جاء بعدهم من المؤلفين والباحثين المحدثين .

الثانية : مصادر علمية : ويقصد بها دراسات وأبحاث أكاديمية أو في مستواها – سواء أكانت منشورة على هيئة كتب أو مقالات – لأساتذة وباحثين لهم قدرهم ومكانتهم العلمية من أمثلة المخطوط العربي للدكتور عبد الستار الحلوجي ، الكتاب العربي بين الماضي والحاضر للدكتور محمود الشنيطي ، شمس العرب تسطع على الغرب للمستشرقة الالمانية زيغريد هونكه ... الخ وهي مؤلفات يعتمد عليها .

الثالثة : مصادر عادية : يطلق عليها مصادر الدرجة الثالثة ، ويقصد بها المؤلفات التي تعالج الموضوع بصورة مبسطة وتعتمد في معلوماتها على المصدرين السابقين ، من أمثلة :

لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات للدكتور عبد الطيف الصوفي ، المكتبات في الاسلام للدكتور محمد ماهر حماده .... الخ .

وكانت الاستفادة من مصادر هذه الفئات الثلاث مرتبطة بدرجة اهميتها من ناحية وبما يحقق ويعالج عناصر البحث ومباحثه من ناحية اخرى .

وتشمل عناصر هذا البحث توطئة وأربعة مباحث وخاتمة ، على النحو التالي :

توطئـــــــة : تتناول الأجواء الفكرية والثقافية في الحضارة الاسلامية ، والتي ساعدت على نشأة المكتبات عامة والمكتبات الأكاديمية خاصة ، مع بيان اهميها ودورها في تنشيط الحركة العلمية والتعليمية .

المبحث الاول : المكتبات الأكاديمية : مفهومها ، نشأتها وتطورها ، مع بيان مصادرها ونماذجها.

المبحث الثاني : إدارة المكتبات الأكاديمية ، من حيث : المبنى والأثاث ، العاملين ، المتخصصات المالية .

المبحث الثالث : تنظيم المكتبات لأكاديمية ، من حيث : الفهرسة والتصنيف .

المبحث الرابع : خدمات المعلومات التي تقدمها المكتبات الأكاديمية ، مع بيان أثرها العلمي والفكري في الشعوب العربية والاوروبية .

خاتمـــــــة : تتضمن أهم النتائج والتوصيات .

قـــائمـــة : بمراجع ومصادر البحث .

وقبل الولوج في بسط هذه المباحث واشباعها بالمعلومات ، تجدر الاشارة – بل التأكيد – على أنني اكتفيت بالايجاز المفيد والاختصار غير المخل وتجنبت الاطناب والاستطراد – بالرغم من القدرة عليه – ملتزما بمبدأ " ما قل ودل " وهو أصعب وأشق ، مستهدفاً تحقيق الأهداف التي يسعى البحث اليها .

توطئـــة

ارتبطت حركة الكتب ونشأة المكتبات منذ أقدم العصور حتى الآن ارتباطاً وثيقاً بمجموعة من المقومات مثل معرفة الكتابة والحصول على المواد الخاصة بتسجيل وحفظ ونقل المعلومات والمعرفة ، وتعلم القراءة ، وهى دعامات من شأنها المساعدة على انتاج الكتب وتوسيع نطاقها والافادة من محتوياتها .

وقد وجدت هذه المقومات في البيئة العربية منذ القرون الاولى للحضارة الانسانية " فلم تكن الكتابة مجهولة لدى العرب في جاهليتهم ، فهم قد سجلوا بها عهودهم ومواثيقهم ومواعظهم ومآثرهم " (١) ، ومرت الكتابة عندهم بتطورات كثيرة كان آخرها التحول من الصورة النبطية إلى الصورة العربية ، ولا يسع المقام هنا للافاضة في اثبات ذلك ، بل تكفي الاشارة إلى الدليل الصادق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ألا وهو القرآن الكريم الذي يثبت للعرب معرفتهم بالكتابة والقراءة قبل مجيء الاسلام وذلك في أكثر من آية ، فنقرأ في محكم آياته :

- " وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا " (٢) .
- " ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه " (٣)
- " ولو نزلنا عليك كتاباًفي قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين " (٤) .

ففي هذه الآيات الكريمات وفي غيرها دلالة على أن العرب كانوا يعرفون القراءة في حياتهم الأولى .

أما عن مواد الكتابة عندهم فهى كثيرة ، فقد كتبوا " على قطع الحجر والعظم والخشب والمحار والجلد والرق والبردي ، وكانت العرب تسميه ورق القصب ثم بدأوا في القرن الثاني الهجري يستعملون الورق ، فما جاء القرن الرابع حتى كان الكاغد أو الورق هو مادة الكتابة الرئيسية عند العرب " (٥) .

وقد كان لاكتشاف الورق ، ولمعرفة العرب سر صناعته ، أثر بالغ في الثقافة العالمية وتطور جذري في حياة الانسانية ، ولانغالي اذا اعتبرناه فارقاً بيّن في حياة الكتاب عند العرب .

ففي الشرق – وفي الصين تحديداً – تم اكتشاف جوهري بالنسبة لمستقبل الكتابة ألا وهو الورق ، وكان ذلك عام ١٠٥م في مدينة " هونان " الصينية ، ثم انتشر بعد ذلك في جميع انحاء الصين ، وتعلم العرب فن صناعته من صناع صينين وقعوا في الأسر عندما سقطت " سمر قند " في أيديهم عام ٧٥١م .

ومنذ القرن الثامن كانت هناك مصانع للورق في بغداد وفي سوريا في عصر هارون الرشيد . ويصف القلقشندي أنواع الورق المعروفة في عهده مثل البغدادي والشامي والمصري وورق أهل المغرب والفرنجة (٦) .

وسار موكب صناعة الورق مطوفاً بسوريا ، ماراً بفلسطين ومصر لينطلق منها إلى الغرب إلى تونس ومراكش وأسبانيا . ومن عرب صقلية والأندلس تعرفت بلاد الغرب على هذه المادة الكثيرة النفع ، التي هى في الحقيقة احدى دعائم الثقافة والحياة الروحية (٧) .

أما عن أداوت الكتابة التي كانوا يكتبون بها فقد أورد القلقشندي في " صبحه " نقولا عن الخطاطين والكتاب الأوائل تتناول القلم وأنواعه وأجزائه وطرق بريه ، كما تعرض لأنواع المداد والمواد التي تصنع منها وطرق اعدادها ، ويشير إلى هناك عديداً من العمليات المختلفة لتصنيع الأحبار وأن بعضها بقى سراً (٨) .

أما عن القراءة والكتابة ، فقد انتشرت في جزيرة العرب ، ولكن انتشارها كان بطيئاً ، إذ أنه لما جاء الاسلام كان عدد القرشيين الذين يستطيعون القراءة والكتابة سبعة عشر رجلاً فقط (٩) .

ولقد حض الاسلام على العلم ودعا إلى تعلم أدواته : القراءة والكتابة ن ويكفي الاشارة إلى أن أول آية من القرآن الكريم نزلت على نبينا صلى ا لله عليه وسلم هى " إقرأ باسم ربك الذي خلق " (١٠) كما أن الاحاديث النبوية التي تدعو الى العلم وترفع قدر العلماء كثيرة ، منها " غدوة في طلب العلم أحب الى ا لله من مائة غزوة " ، " العلماء ورثة الانبياء " ، "أفضل الناس المؤمن العالم " ... الخ ، وفي غزوة بدر وقع كثير من أهل مكة في الاسر ، وقد جعل الرسول صلى ا لله عليه وسلم للقارئين منهم أن يفتدوا أنفسهم بتعليم القراءة والكتابة

عدداً من أبناء المسلمين . وانتشر التعليم رويداً في بقاع الامبراطورية الاسلامية ، وكان الدافع وراء هذا أن تعليم القراءة والكتابة يعتبر أداة لمعرفة الدين ووسيلة لنشره وتبليغه .

كان تدوين القرآن الكريم فاتحة عهد التدوين عند العرب ، وقد دون تفاريق في البداية من قبل مجموعة من الكتاب عرفوا بكتاب الوحي واشهرهم زيد بن ثابت لكثرة ملازمته للرسول صلى الله عليه وسلم .

ولما حدثت حروب الردة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، استشهد فيها كثير من حفظة القرآن الكريم ، خشى عمر عمر بن الخطاب من خطورة الامر ، فذهب إلى الخليفة الراشد أبي بكر وطلب اليه أن يجمع القرآن ، واستطاع اقناعه بعد نقاش ، لأن الخليفة لم يكن راغباً في فعل شيء لم يفعله الرسول قبله ، وجعل يأمر الصحابي زيد بن ثابت يجمع القرآن وتدوينه وهذه هي المرة الأولى التي دون فيها القرآن الكريم ، أما تدوينه للمرة الثانية فقد تم في عهد الراشد عثمان بن عفان الذي احضر الصحائف المدونة وأمر عدداً من الصحابة على رأسهم زيد بن ثابت باعادة تدوين القرآن الكريم ثانية ، وهو التدوين المرتب الذي استمر بهذا الشكل إلى اليوم وأصبحت هذه النسخة النسخة الأم التي احتفظ بها الخليفة لنفسه ، وكتب عنها خمس نسخ أخرى أرسلها إلى كل من المدينة ومكة والبصرة والكوفة والشام (١١).

وبعد تدوين القرآن الكريم ، بدأت عملية تدوين الحديث الشريف بشكل منظم في القرن الثاني للهجري وكانت قبلها موجودة بشكل محدود جداً ، حيث كان يكتب نفر من الصحابة بعض الأحاديث لدراستها وحفظها ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد نهى عن تدوين الحديث الشريف خلال حياته خشية اختلاطه بآيات القرآن الكريم .

وتمتاز عملية تدوين الحديث الشريف بالمنهجية العلمية وتحري الدقة والأمانة العلمية والنزاهة ، من أجل جمع الأحاديث الصحيحة دون سواها المنسوبة باطلاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لأسباب سياسية او حزبية ، ومن ثم فقد وضع العلماء لتحقيق ذلك قواعد ومناهج بحث دقيقة في التحري والتقصي والتحقيق والاسناد .

اتسع ميدان التأليف عند العرب ليشمل موضوعات إسلامية أخرى ، كسيرة الرسول صلى ا لله عليه وسلم ، ومغازيه ، وتاريخ العرب والمسلمين وأنساب العرب ، ثم مجالات اللغة والادب والثقافة والعلوم الأخرى .

وقد شهدت حركة التأليف العربية نهضة كبيرة منذ القرن الثاني للهجرة لا سيما بعد ان تعلم العرب صناعة الورق عن الصينين وانشأوا له المصانع في بعض البلاد الاسلامية – كما أسلفنا من قبل – وأصبح مادة معتمدة للكتابة عليها في الأقطار العربية .

أقبل العلماء والأدباء وانكبوا على البحث والدرس ، والكتابة والتأليف في جميع ميادين المعرفة البشرية السائدة آنذاك ، وبرزت لديهم ظاهرة حب الكتب واقتنائها ، وهذا الحب كان نتيجة طبيعية للتدوين والتأليف الذي تم منذ ظهور الاسلام ، وفي ذات الوقت كان احد الدوافع الأساسية للتدوين والتاليف ، فهو علة ومعلول كما يقول المناطقة .

في هذه الأجواء نشأت حركة علمية وتعليمية كبرى ، حيث أنشئت المدارس ممثلة في المساجد اولاً خلال العهد المبكر للاسلام ، ولعل السبب في ذلك هو أن الدراسات في سنى الاسلام الأولى كانت دراسات دينية تشرح تعاليم الدين الجديد وتبين أسسه ومبادئه وأحكامه وقواعده ، علاوة على ذلك فقد توسع المسلمون في عصورهم الأولى في فهم مهمة المسجد ، فاتخذوه مكاناً للعبادة ومعهداً للتعليم . كما أنشئت الكتاتيب في حواضر بلاد العالم الإسلامي

بيد أن هذا الوضع لأمكنة التعليم لم يستمر طويلاً ، حيث أنشئت مدراس ذات مبان مستقلة ، وانتقل التعليم من ا لمساجد إلى المدارس ، ويرجع البعض (١٢) ذلك لسببين : أولهما : أن المساجد اكتظت بحلقات دراسية لا بحلقة واحدة وبالتالي زاذ الناس إقبالاً على هذه الحلقات مما ضاعفت من أعدادهم ، وكان ينبعث من كل حلقة من هذه الحلقات صوت المدرس يلقي الدرس وصوت الطلاب يسألون ويناقشون ، وكانت تتلاقى الاصوات المتصاعدة من الحلقات المختلفة ، مما أحدث ضجيجاً يمنع الصلاة والعبادة من أن تؤدي على وجهها ، فاتضحت صعوبة احتمال المسجد للصلاة والتدريس معاً . أما السبب الثاني : هو أن العلوم تطورت بتطور الزمن وتقدم المعارف ، وأصبحت هناك مواد تستدعي دراستها

كثيراً من الحوار والنقاش والجدل ، ومثل هذه المواد تتنافى طبيعة تدريسها مع ما يجب أن يكون عليه رواد المساجد من هدوء وجلال .

وانتشرت المدارس وزاد عددها منذ النصف الثاني من القرن الاول الهجري في العهد الأموي (٤٠-١٣٢هـ) ثم قامت الجامعات في حواضر الأمصار الإسلامية بعد ذلك ، وبلغ التعليم حداً واسعاً من الانتشار ، وبدأ العلماء المسلمون يحتكون بالثقافات الأخرى ويتأثرون بها .

وكان نتيجة هذا الاحتكاك هو ولادة حركة ترجمة ناشطة من اللغات اليونانية والفارسية والسريانية والقبطية إلى اللغة العربية . كان عماد هذه الحركة فئات من المستعربين الفرنجة التي برز منها أناس كثيرون جمعوا بين لغتهم الأصلية واللغة العربية ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ابن المقفع ، يحيى بن ماسويه ، حنين بن اسحق وغيرهم كثير (١٣) . وقد سار التأليف الأصيل جنباً إلى جنب مع النقل والتعريب ، وكثرت مجالس الإملاء التي كان من ثمارها كتب كثيرة في كل فنون المعرفة السائدة آنذاك .

وحتى تكتمل الصورة الفكرية والثقافية للحضارة العربية الاسلامية الاولى ، يجب الإشارة - ولو بشيء مقتضب يسير - إلى حركة الوراقة والوراقين التي لعبت دوراً بارزاً في اتساع رقعة الثقافة العربية ونشرها على أوسع نطاق من ناحية ، كما كان لها دورها الذي لاينكر في إنتاج ونشر (نسخ) الكتب وحفظها وتسجيلها في قوائم ببليوجرافية أو وراقية كما يحلو للبعض تسميتها من باب النخوة العربية أو المغايرة اللفظية .

ساعد اختراع الورق انتشار استعماله في الكتابة على ظهور طبقة جديدة من الناس في عالم الكتب ، هؤلاء هم الوراقون الذين امتهنوا مهنة النسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها وعرضها وبيعها ، لذا يمكن أن نطلق عليهم بمصطلحات هذ العصر " الناشرين " إن جاز لنا التعبير .

رسخ الوراقين أقدامهم في المدن الرئيسية في أسواق عمل أسموها باسم مهنتهم مثل سوق الوراقين أو باسم سلعتهم أسواق الكتب (١٤) . وأصبحت مهنة الواقة مهنة راقية محترمة ،

حيث امتهنها علماء أجلاء ومؤلفون مرموقون وأدباء كبار من ذوي الثقافة العالية ، لم يكونوا تجاراً ينشدون الربح ، بل كانوا – في أغلب الاحيان – يسعون للذة العقلية والتثقيف الذاتي من وراء هذه الحرفة التي كانت تتيح لهم القراءة والاطلاع ، من أمثال ابن النديم صاحب الفهرست ، وياقوت الحموي مؤلف معجم الأدباء ، ومعجم البلدان ، وعلي بن عيسى المعروف بابن كوجك وغيرهم كثير .

في هذا الجو العلمي والثقافي الذي مهدت له مجموعة من المقومات الحضارية – والتي أشرنا اليها بايجاز في الفقرات السابقة – ظهرت المكتبات على أنواعها في العالم الاسلامي وتطورت وازدهرت ، حيث وجدت أرضاً صالحة خصبة فأثمرت وأينعت وآتت اكلها باذن ربها ، متمثلة في حضارة رائعة أفاضت على العالمين خيراً وفيراً وعلماً غزيراً .

لقد تفاعلت المكتبات مع حركة المجتمع وساعدته على الرقي والنهوض ودفعته إلى النجاح عن طريق نشر العلم والمعرفة ، وتفاعل المجتمع مع حركة المكتبات ، حيث اعتبر المسلمون الكتب أكثر جلباً للهيبة والعظمة وأدركوا قوتها ومدى تأثيرها على بناء الفرد والمجتمع ، فشغوا باقتنائها واعتنوا بتنظمها ، وأحلوها أعلى منزلة عندهم ، وأنشأوا لها المكتبات لحفظها ولتوسيع دائرة الافادة منها على أكبر نطاق ممكن لمجتمع المستفدين من القراءة والباحثين .

وظهرت المكتبات بأنواعها المختلفة ، وتقف المكتبات الأكاديمية التي شيدها الخلفاء والأمراء وألحقوها بالمعاهد العلمية القائمة وقتذاك ؛ على قمة أنواع المكتبات ، وأصبحت حلقة من منظومة المعلومات وكونت مع غيرها من المكتبات شبكة من شبكات المعلومات ، فكيف نشأت وكيف تطورت ، هذا هو موضوع المبحث التالي .

المبحث الأول : المكتبات الأكاديمية

يعالج هذا المبحث بعض العناصر المرتبطة بالمكتبات الأكاديمية ، مثل تحديد مفهومها وما يطلق عليها من مصطلحات سواء في العصور السالفة أو العصر الحالي ، ثم يتعرض بشيء من الاقتضاب لنشأتها وتطورها وبيان العوامل التي ساعدت على ذلك ، ثم التعرف على مصادر بناء المجموعات بها ، وأخيراً يذكر بالشرح الميسر أهم نماذجها ، في محاولة لإعطاء صورة متكاملة – قدر الإمكان – عن هذا النوع من أنواع المكتبات الاسلامية .

تبرز أهمية المكتبات الأكاديمية في الحضارة الاسلامية من خلال مساهمتها الفعالة في موضوعات الدراسة وميادين البحث ، حيث كانت ملحقة بالمؤسسات العلمية القائمة وقتذاك.

لذا أهتم بأمرها من حيث الإنشاء والإعداد وتقديم الخدمات ، مجموعة من ذوي الثقافات العالية كالعلماء والأدباء والمؤلفين والمترجمين ، فحولوها إلى مراكز بحث وقاعات للمناظرات وعقد الندوات العلمية ، علاوة على كونها مرفقا من مرافق المعلومات في زمنها البعيد .

مفهومها :

تختلف المفاهيم وتتعدد المصطلحات في مجال المكتبات وعلومها بصفة عامة ، والمكتبات الأكاديمية بصفة خاصة ، فقد يطلق البعض عليها " مكتبات أكاديمية " ، في حين يطبق البعض الآخر عليها " مكتبات جامعية " كما يطلق اخرون عليها " مكتبات البحث " أما العرب السابقون فقد كانوا يطلقون عليها – آنذاك – أسماء عدة منها دار الكتب ، خزانة الكتب ، دار العلوم .

وأيا كان المصطلح المستخدم ، فإن مفهومها في هذه الدراسة يضيق إلى حد ما لينصب على المكتبات التي أنشئت لخدمة المعاهد والمراكز والمؤسسات العلمية التي أنشأها الحكام من الخلفاء والأمراء لتنشيط ودفع الحركة العلمية في المجالات المختلفة ، ويؤمها الباحثون والعلماء أو الكتاب والشعراء والقضاة ، وتتسم مطالعهم بطابع البحث والجدية .

وتجدر الاشارة إلى أن هناك مكتبات ألحقت بالمدارس ، فقلما خلت مدرسة من المدارس التي انتشرت في العراق ومصر ودمشق من مكتبة تتبعها ، من أمثلة ذلك مكتبة المدرسة النظامية ببغداد ، ومكتبة القاضي الفاضل بالقاهرة ، ومكتبة مدرسة نور الدين زنكي بدمشق .... الخ .

وهذه المكتبات المدرسية تخرج عن نطاق مفهوم المكتبات الأكاديمية في بحثنا هذا ، ليس لعدم أهميتها ولكن لأحقيتها في تخصيص دراسة مستقلة لها ، وهذا ما نأمل إليه ونعمل عليه – فيما بعد – بأذن الله .

نشأتها وتطورها :

بدأت المكتبات الأكاديمية بالظهور في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ) ببغداد ، الذي يعتبر بحق العصر الذهبي للمكتبات الاسلامية بأنواعها المختلفة ، فقد اهتم خلفاء ذلك العصر وحكامه اهتماماً كبيراً بالمكتبات من حيث العدد والعدة ، فأنشاوا مكتبات ألحقوها بقصورهم أو بالمراكزوالمعاهد العلمية ، وزودوها بنفائس الكتب في مختلف العلوم والفنون ، وأنفقوا عليها من أموالهم بسخاء ، وخصصوا لها أبنية مستقلة .

أنشئت المكتبات الأكاديمية لتكون في متناول الدارسين والباحثين والوافدين إليها ، كما أنشئت – في بعض الأحيان – لتكون نواة فيما بعد لمعهد علمي أو مركز بحث يستقبل الطلاب والباحثين فيجدون فيها العلم والمعرفة .

ومن العوامل التي ساعدت عل نشأتها وازدهارها أنه قد " بدأ التقدم العظيم للتعليم والانشطة التعليمية في العالم الاسلامي قرب نهاية القرن الثامن الميلادي ، وقد عزز قيامه صناعة الورق التي دخلت في العالم الاسلامي في ذلك الوقت من الشرق الأقصى الذي وفر مواداً رخيصة لإنتاج الكتب " (١٥) .

وقد ازدهرت الحضارة العربية الاسلامية في العصور الوسطى ، وسجلت المخطوطات (الكتب بمصطلحات العصر) الانجازات العقلية لهذه الحضارة في جميع الميادين ، ولعبت الكتب – ولاتزال – دوراً رائداً في العملية التعليمية والبحثية ، فهي الأوعية التي يفرغ فيها

العالم من علمه ، والتي يجد فيها الباحث بغيته وحاجته ، واستشعاراً لأهمية الكتب اعتنى بها الخلفاء والأمراء وذوي الشأن عناية عملية وعلمية فأنشأوا المكتبات الأكاديمية التي تحتضن هذه الكتب وتحافظ عليها من الضياع وتكون مركزاً لتقديم الخدمات المكتبية المتميزة للباحثين والدارسين على حد سواء .

مصادرها :

تشير النصوص المختلفة إلى أن المكتبات الاسلامية سواء الأكاديمية او غيرها ، اعتمدت في تكوين مجموعتا على عدة مصادر ، يمكن ايجازها فيما يلي :

١ – الشراء : من الاعتمادات المالية التي خصصها الخلفاء والأمراء للصرف على المكتبات ، حيث كانوا ينفقون على شراء الكتب بسخاء ، ويرسلون البعثات في أنحاء البلاد للبحث عن أنفس المخطوطات وشرائها وخاصة المؤلفات اليونانية القديمة .

٢ – تلقى الاتاوات في شكل مخطوطات من بيزنطة وأماكن أخرى في العالم (١٦) . وكان من حرص الخلفاء وتقديرهم للعلم أنهم كانوا يشترطون للصلح مع أعدائهم تسليم كتب القدماء لهم ، وهذا ما فعله المأمون بعد انتصاره على ميشيل الثالث امبراطور الروم حين اشترط عليه أن يسلمه كتب الفلاسفة القدماء والتي لم تتم ترجمتها إلى اللغة العربية .

٣ – الاهتمام بالمشاريع العلمية لترجمة روائع الاغريق وكذا أدب الشرق إلى اللغة العربية ، وتزويد المكتبات بهذه المترجمات .

٤ – الوقف : حيث أوقف مؤسسو هذه المكتبات الأوقاف السخية ليضمنوا استمرارها وحسن أدائها لمهمتها التي أوجدت من أجلها ، كذلك أوقف العلماء كتبهم على هذه المكتبات ، وذلك لهدفين : ليضمنوا حفظها من ناحية ، ولنظل هذه الكتب في متناول المتعلمين والعلماء من ناحية أخرى .

ويذكر صاحب كتاب " الوقف وبنية المكتبة العربية " (١٧) أن الوقف في أسهم في إرساء دعائم ثقافية متنوعة في المجتمعات الاسلامية على مدى قرون طوال من بينها :

– تشييد المدارس ، وتعيين المدرسين فيها ، والانفاق على طلبة العلم .

- الاستفادة من المساجد في التعليم بايجاد زوايا العلم وحلقات الدرس .
- العناية بتوفير مصادر المعلومات في المدارس والمساجد والربط والمارستانات .

وقد شارك في هذه الأنماط الوقفية قطاع عريض من المجتمع خلفاء وسلاطين وحكام وأمراء ، وأثرياء وعلماء ووزراء ، وبعض من عامة الناس .

وانتشرت خزائن الكتب الوقفية في ارجاء العالم الاسلامي منذ القرن الرابع الهجري ، لدرجة أننا قلما نجد مدينة تخلو من كتب موقوفة ، وأصبحت هذه المكتبات بما فيها من كتب وقفية قبلة لطلاب العلم تعينهم على التزود بكل جديد وتوفر لهم فرص مواكبة الافكار والاراء المدونة لمؤلفين من اصقاع العالم الاسلامي .

نماذجها :

لعل أحد العوامل الهامة لازدهار الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى كان عناية واهتمام الخلفاء والأمراء بالعلم والعلماء في شتى جوانب المعارف الانسانية المطروقة وقتذاك ، وترجمت هذه العناية إلى واقع عملي ملموس ، يتمثل - أحد جوانبه - في إنشاء المكتبات بانواعها المعروفة - وعلى قمتها المكتبات الأكاديمية - وإعدادها على أعلى مستوى من حيث اقتناء المجموعات وتنظيمها وتعيين المشرفين عليها وتحديد المخصصات المالية اللازمة لتسيير حركة العمل .

وزاد عدد المكتبات زيادة كبيرة (١٨) ، وخاصة المكتبات الأكاديمية ، التي ارتبطت بالحركة العلمية القائمة وقتذاك ، وليس هنا مجال التوسع في الحديث عنها ، ولكن تكفي الاشارة إلى أهم ثلاث (١٩) منها كنماذج ليس إلا ، وسأحاول - قدر الطاقة - التركيز فقط على المعالم الرئيسية لكل مكتبة من هذه المكتبات الثلاث :

١ - بيت الحكمة :

تعد هذه المكتبة التي انشئت في بغداد - أول مكتبة أكاديمية على نطاق واسع - بالمعنى المتعارف عليه - أنشئت في العالم الاسلامي في العصور الوسطى ، أنشأها الخليفة العابد هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ) - الذي تجنت عليه أجهزة الاعلام العصرية - فقرب اليه العلماء

وعقد لهم المجالس ببلاطه ، وعهد إليهم ترجمة الكثير من الكتب العلمية من الحضارات السابقة تحت اشراف يحيى بن ماسويه .

ثم رعاها من بعده ابنه المأمون (١٩٨ – ٢١٨هـ) المعروف بغزارة علمه وسعه تفكيره ، فكان أكثر اهتماماً بها ورعاية لها ودعماً لتنمية مجموعاتها ، ويعتبر عهده أزهى عصور بيت الحكمة حيث بلغت أوج عظمتها من حيث الاعداد والادارة .

وقد سميت " بيت الحكمة " أو " خزانة الحكمة " في بعض المصادر ولم تسم " خزانة الكتب " وهذا الاسم له دلالته ، حيث يشير إلى طبيعة الكتب التي كانت تجمع فيها من ناحية والتي تترجم فيها من ناحية اخرى ، لقد كانت الحكمة مرادفة للفلسفة وخاصة اليونانية ، ويقصد بالفلسفة وقتئذ المفهوم الواسع الشامل للكلمة ، حيث كانت تشمل كل العلوم تقريباً : الطب والفلك والطبيعة والرياضيات والمنطق ، علاوة على المباحث الفلسفية ، أما كلمة " بيت " أو " خزانة " فتدل على المكان الذي يوضع فيه الشيء (الكتب) أو يخزن .

وتبلور الهدف من وراء إنشاء بيت الحكمة في مساعدة العلماء والباحثين بتوفير أكبر قدر ممكن من مصادر المعلومات لهم " لتسهيل سبل الدرس والمطالعة والتأليف والترجمة لمن يرغب في ذلك ، فقد كان يتعذر على الناس أن يقفوا على الكتب العلمية النادرة والتي ترجمت من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية ... فذلل الخلفاء للناس سبل المطالعة والدرس في بيت الحكمة الذي انشيء لنشر العلم والمعارف المنقولة عن الأمم الاخرى " (٢٠) .

ولم يكن بيت الحكمة مكتبة تقليدية ، بل كان أكاديمية علمية أو مجمعاً علمياً – إن جاز لنا التعبير بمصطلحات العصر – حيث جمع بين الأكاديمية والمكتبة ومركز الترجمة " وبيت الحكمة أول جامعة اسلامية اجتمع فيها العلماء والباحثون ، ولجأ إليها الطلاب فكان بذلك أول مركز علمي يحقق للطلاب زاداً علمياً وفيراً " (٢١) .

كان هذا المجمع العلمي يضم عدة أقسام ، كقسم النقل (الترجمة) وهو بدوره مقسم إلى أقسام فرعية بحسب اللغات : اليونانية ، السريانية ، الفارسية ، وقسم البحث العلمي ، وقسم

التأليف ، وقسم الاستنساخ ، والمرصد الفلكي ، والمكتبة ، كما كان يحتوي على قسم التجليد والتذهيب يعمل به فريق من المجلدين لتجليد وحفظ الكتب حتى لاتتاثر بكثرة الاستعمال ، " وكان أشهر هؤلاء المجلدين ابن أبي الحريش " (٢٢) .

وكان يشرف على كل قسم من الأقسام السابقة شخص مسئول عن تسيير العمل به ، ويعمل تحت إمرته مجموعة من العاملين كل في مجال تخصصه .

واجتمع للعمل في بيت الحكمة عدد من العلماء والبحاثة من الطراز الأول قل ان يجتمعوا في مكان آخر ، من أمثال الفضل بن نوبخت أبو سهل ، حنين بن اسحق ، يوحنا بن البطريق ، ثابت بن قرة ، ابن ماسويه .... وغيرهم كثير ، وكانوا يتقنون عدة لغات مثل الفارسية واليونانية والسريانية بالاضافة إلى اللغة العربية .

وتولي إدارة هذه الأكاديمية عدد من العلماء أشهرهم سهل بن هارون الذي كان يشرف – في وقت واحد – على خزانة المأمون ، أي خزانة كتبه الخاصة ، كما يشرف على الأكاديمية التي سميت بيت الحكمة أو دار الحكمة ، وكلا العملين عظيمين في بابه ، ولكنهما من نمط واحد (٢٣) .

واحتوت المكتبة على مجموعات ضخمة من الكتب ، بيد أن عدد مجلداتها غير معروف على وجه الدقة ، ففضلاً عن كتب العلوم والطب والرياضيات والآداب والفلسفة اليونانية والسريانية ، فقد ضمت أيضاً كتب التراجم والسير والآداب واللغة والتراث الاسلامي ، ولم تقتصر المقتنيات على أوعية الكتب فحسب ، بل ضمت تحفاً خطية ومصورات جغرافية ومرصداً فلكياً .

" ولجعل هذه المكتبة أشمل ما تكون جلب لها مخطوطات مهمة اشتريت من الامبراطورية البيزنطية وقام على ترجمتها إلى العربية علماء أكفاء " (٢٤) . إذ كان يرسل هارون الرشيد ومن بعده المأمون البعثات إلى بلاد الروم وغيرها للحصول على الكتب في موضوعات الفلسفة والهندسة والحساب والطب وغيرها ثم ترجمتها إلى اللغة العربية .

ومن نافلة القول أن نشير إلى أن مكتبة بيت الحكمة ظلت مشعلاً للفكر ، ومركزا للنشاط العلمي والأدبي ، وملتقى العلماء والأدباء ، حتى دهم التتار بغداد في منتصف القرن السابع الهجري (١٢٥٨م) وقتل المخرب المغلولي هولاكو المستعصم آخر خلفاء العباسيين في بغداد ، وضاعت المكتبة في ذلك الدمار الشامل فأحرقوا الكتب وبنو بها اصطبلات الخيول ، وقيل أن ماء دجلة تغير لونه لغزارة دماء القتلى أثناء هذا الغزو ، وأقاموا بكتب العلم ثلاثة جسور على دجلة . وأطفأوا هذه الشعلة العلمية المنيرة ، فكانت خسارة للثقافة والمعرفة والحضارة الاسلامية خاصة والحضارة الانسانية عامة .

٢ - دار الحكمة :

لقد كان لـ " بيت الحكمة " الذي أنشيء في بغداد في عهد هارون الرشيد ، الأثر الكبير في ازدهار وتشجيع العلم والعلماء وإنشاء المكتبات في بقية أقطار الدولة الاسلامية .

فعلى هذا النسق جرى خلفاء الفاطميين في مصر ، فأسس الحاكم بأمر الله أكاديمية علمية كبرى ، أطلق عليها " دار الحكمة " افتتحها سنة ٣٩٥هـ (٢٥) ، وقد اختار لها هذا الاسم رمزاً للحركة العلمية ، ذلك أن مجالس العلم كانت تسمى - وقتذاك - مجالس الحكمة ، فهى بهذا الوصف مكتبة ومركز أكاديمي للبحث والدرس وعقد المناظرات والندوات وقاعة محاضرات تدرس فيها العلوم المختلفة .

وتعتبر هذه المكتبة الأكاديمية أول مكتبة يخصص لها مبنى مستقل في مصر ، فقد بنى لها الحاكم بأمر الله بناءً ضخماً ألحقه بقصره ، فرشه أحسن فرش ، وزوده بعدد كبير من الكتب نقلها اليه من خزائن خاصة في سائر العلوم ومختلف الفنون والآداب .

وصف المقريزي في " خططه " الاستعدادات التي اتخذت تمهيداً لافتتاح هذا الصرح العلمي الكبير ، فمن جملة ما قاله : افتتحت هذه الأكاديمية يوم السبت العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥هـ (٥ مارس ١٠٠٥م) وقد سبقها استعداد متواصل استمر فترة طويلة ، ذلك أن الحاكم أراد أن تبز مؤسسته كل ماسبقها من مؤسسات وخاصة العباسية منها ، لذلك فقد أمر الحاكم باتخاذ بناء خاص بها فأفراد لها دارا كبيرة مجاورة للقصر الغربي يدخل اليها من باب البسانين تعرف بدار مختار الصقلي ، كذلك أمر بفرشها ففرشت وزخرفت

وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور وأقيم قوام وخدم وفراشون وغيرهم وسموا بخدمتها (٢٦) .

ويمكن بلورة الهدف من وراء إنشاء هذا الصرح العلمي في تلقين أصول الدعوة الفاطمية الاسماعلية في نظم ومراتب (٢٧) . مما جعل قيام مثل هذا المعهد ضرورة ليشرف بطريقة منظمة على عملية بث الدعوة الفاطمية وتوجيهها ، وجود مجموعة من العوامل والظروف السائدة آنذاك منها اتساع نطاق الدولة الفاطمية وبالتالي الدعوة الفاطمية ، ومنها اضطرام الصراع المذهبي بين الخلافة الفاطمية وخصومها وخاصة العباسيين ويضيف البعض (٢٨) سببا طريفاً ألا وهو أن الخليفة الحاكم بأمر الله أراد أن يمحو من الأذهان ما علق بها من مجد " بيت الحكمة " الذي أنشأه هارون الرشيد ببغداد .

لهذه الأسباب وغيرها اهتم الفاطميون بلآداب والعلوم وجميع فروع المعرفة ، وازدهرت الحضارة في عصرهم ، وحاولوا منافسة العباسيين وجعل القاهرة عاصمتهم مركز جذب حضاري وثقل ثقافي ينافس بغداد ، ولتحقيق ذلك أسسوا مراكز العلم والبحث والدرس ، فاهتموا بالعلم وشجعوا العلماء ، وكان من جملة مآثرهم إنشاء " دار الحكمة " التي كانت بمثابة مركز أكاديمي للبحوث وعقد الندوات العلمية .

وقسمت " دا الحكمة " الى خمسة اقسام : قسم للفقهاء ، وقسم آخر لقراء القرآن الكريم ، وقسم ثالث للمنجمين ، وقسم رابع لأصحاب النحو واللغة وخصص القسم الخامس للاطباء . وقد أباح الحاكم بأمر الله الآطلاع لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها ، فكان ذلك من المحاسن المأثورة ايضاً التي لم يسمع بمثلها ، ذلك انه أعطى رواتب لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها من فقيه وغيره (٢٩) .

عمل في هذه الأقسام المختلفة مجموعة من العلماء والأدباء كل في مجاله ، منهم أسامه بن محمد اللغوي والحسين بن سليمان الأنطاكي النحوي وعبد الغني بن سعيد وكانت الدراسة بالأكاديمية تتسم بالحرية الفكرية في بادي الأمر ، ذلك أن الفاطمين أرادوا نشر دعوتهم عن

طريق التعليم بالإقناع والإقتناع ، فسمحوا بتدريس المذهب الشيعي والسني معا ، ولم يلبث الأمر طويلاً حتى قضوا على المذهب السني ودعاته رويداً رويداً .

وكان يشرف على سير الدراسة بالاكاديمية وحسن انتظامها داعي الدعاة الفاطمين المؤيد في الدين أبو نصر هبة الله بن موسى بن أبي عمران ، صاحب كتاب " المجالس المؤيدية " وهو عبارة عن مجموعة من المحاضرات التي ألقاها على الدراسين ، تتناول موضوعات دينية وأدبية وسياسية تدعو إلى المذهب الشيعي (٣٠) .

وتعتبر هذه المكتبة من أضخم المكتبات الأكاديمية من حيث المقتنيات ، فقد أشارت المصادر المتاحة (٣١) إلى أن مقتنياتها بلغت (١٬٦٠٠٬٠٠٠) مليون وستمائة الف مجلد ، منها (٦٥٠٠) في الرياضيات ، (١٨٬٠٠٠) في الفلسفة ، كما امتازت بكثرة النسخ من الكتاب الواحد ، فعلى سبيل المثال كان بها (١٢٠٠) نسخة من تاريخ الطبري ، واكثر من (٣٠) نسخة من كتاب العين للخليل بن احمد الفراهيدي منها نسخة بخط الخليل نفسه ، و (١٠٠) نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد ، وكان فيها (٢٤٠٠) نسخة من القرآن الكريم مكتوبة بخط محلى بالذهب .

استمرت هذه المكتبة في عطائها العلمي حتى أوائل القرن السادي الهجري ، حتى دب الخلاف ونشبت المشاجرات والخصومات بين روادها ، مما دفع الملك الأفضل باغلاقها والقبض على مثيرى الجدل والفتن العلمية . " ولما توفى الملك الأفضل أمر الخليفة الآمربأحكام الله وزيره المأمون ابن البطائحي برعاية دار الحكمة وفتحها على االأوضاع الشرعية " (٣٢) .

وعندما وقع الخلاف بين الجنود السودانيين والأتراك عام (١٠٦٨م) أغار الضباط الأتراك على المكتبة وأتلفوا كتبها واتخذ عبيدهم من جلودها نعالاً واحذية لهم . ولما دخل صلاح الدين الأيوبي القاهرة بعد قرن من الزمان تقريباً من هذه المأساة ، وجد بقايا المكتبة في القصر الملكي وفيها ما يقرب من مئة الف كتاب ، وزع بعضها على رجاله ، وباع البعض الآخر على يد خبير في الكتب يدعى ابن صورة على مدى عدة سنين ، أما ما بقى منها إلى

عهد المماليك فقد باعه الطلبة أثناء المجاعة التي اجتاحت الديار المصرية نتيجة القحط والأوبئة بين عامي (١٣٤٨ - ١٣٤٩م) كل مجلد برغيف (٣٣) .

وهكذا ضاع صرح علمي ضخم ومكتبة أكاديمية كبرى كان لها شأن عظيم في أزدهار الحضارة الاسلامية ، ضمت عشرات الآلاف من المصنفات في الفقه والحديث والتفسير واللغة وآدابها والفلسفة والفلك والكيمياء ... الخ كل ذلك بسبب الفتن المذهبية التي كانت ثاني اثنين في تدهور الحضارة الاسلامية واضمحلالها .

٣ - مكتبة قرطبة :

تعتبر هذه المكتبة واحدة من ثلاث مكتبات في العصر الاسلامي التي أثرت في حركة البحث العلمي وتطوره ، ضارعت في عظمتها وتاثيرها العلمي والثقافي أشهر مكتبات ذلك العصر في بغداد والقاهرة .

أسسها الخليفة عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر (٣٠٠ - ٣٥٠هـ) في قرطبة ، ثم أخذت تتسع وتنمو حتى بلغت أوج عظمتها في عهد ابنه الحكم الثاني المستنصر بالله (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) الذي اعتنى بها من حيث الاعداد والتجهيز والتنظيم والترتيب ، فأنفق عليها أموالاً طائلة وتضخمت مجموعاتها ، حيث جلب اليها أنفس الكتب من كل مكان ، قال عنه ابن خلدون " وكان محباً للعلوم ، مكرماً لاهلها ، جماعاً للكتب في أنواعها مالم يجمعه أحد من الملوك قبله " (٣٤) .

اهتم الحكم بنشر العلم ورفع قدر العلماء والأدباء وأرباب الفكر ، أغدق عليهم العطايا حتى تم له استقطاب أي حركة عملية او فكرية بزغت في قطر من أقطار العالم الاسلامي ، كما عمل وشجع على هجرة العلماء إلى الأندلس ، حتى غدت مكتبة قرطبة مركزاً علمياً ومنتدياً ثقافياً كبيراً ، يتقاطر إليه العلماء والأدباء والمفكرون من كل حدب وصوب وفي كل مجال من مجالات المعرفة الانسانية .

ومن ثم تعتبر فترة الحكم أهم فترات الازدهار العلمي والثقافي في الأندلس ، ولاسيما أنها كانت فترة استقرار سياسي ورخاء اقتصادي عم ربوع تلك البلاد . وهذا الوضع كان له

انعكاساته وآثاره الايجابية على حركة الكتب والمكتبات في الأندلس ، حتى بلغ عدد المكتبات سبعون (٧٠) مكتبة (٣٥) ، منها في قرطبة وحدها عشرون (٢٠) مكتبة (٣٦) .

وتقف مكتبة الحكم على رأس هذه المكتبات ، التي تبلور هدفها في نشر العلم ومساعدة العلماء في إجراء بحوثهم ، علاوة على منافسة مكتبات العباسيين في بغداد ، فضلاً عن تحقيق رغبة القوم في حبهم للعلم وشغفهم بجمع الكتب والتفاخر بها .

سميت المكتبة باسماء كثيرة منها : " مكتبة الحكم " نسبة إلى الحكم الثاني المستنصر بالله الذي كان عصره أزهى عصورها ، كما أطلق البعض عليها " مكتبة قرطبة " لوجودها في مدينة الزهراء بقرطبة ، كما اطلق عليها " مكتبة الاندلس " لشهرتها من حيث الفخامة والضخامة على جميع المكتبات الأندلسية القائمة في ذلك العصر ، وقد تسمى " مكتبة الأمويين " في الأندلس لاهتمام الحكام والخلفاء الامويين في الأندلس بها على مر الزمان .

وأيا كانت التسمية التي أطلقت عليها ، فالمكتبة – بحق – تعتبر من أعظم المكتبات الأكاديمية التي كان لها دور هام في تنشيط حركة البحث العلمي في بلاد العالم الاسلامي عامة وفي الأندلس خاصة ، لما احتوته من مجموعات قيمة من حيث الكم والكيف .

أجمعت المصادر المختلفة على أن عدد الكتب بالمكتبة بلغ (٤٠٠،٠٠٠) أربعمائة الف مجلد ، وبالرغم من دقة هذا الرقم أو من عدمه ، فإن مجموعاتها في كل الآحوال بلغت من الضخامة والتنوع مالم تبلغه مكتبة أخرى في الاندلس حينذاك . وتؤكد كل المصادر أن عدد فهارس دواوين الشعر فقط بلغ (٤٤) أربعة وأربعين فهرساً ، ولو فرضنا أن في كل فهرس عشرون ورقة فيصبح عدد صفحات فهارس دواوين الشعر (٨٨٠) ثمانمائة وثمانين صفحة ، وهذا رقم ضخم إذا ماقورن بفهارس المكتبات المطبوعة في عصرنا هذا .

" وآخر مثل عن ضخامة المكتبة نجده عند نقلها ، إذ أدى تزويد الحكم لها بالكتب باستمرار إلى استحالة إحتواء المكان القديم لها ، وعندما أعد المبنى الجديد استغرق نقلها ستة شهور " (٣٧) .

فضلاً عن ذلك فقد تنوعت موضوعات الكتب مابين دينية وعلمية وأدبية ، القرآن الكريم وعلومه والسنة المطهرة وعلومها وتراجم الرواة ، والرياضيات والطب والفلك والكيمياء ، واللغة وعلومها والأدب وفنونه ، فضلاً عن الموضوعات الفلسفية والجدلية التي أحرقت كتبها فيما بعد .

تكونت المكتبة من مجموعة الأقسام المألوفة والمعهودة في كل المكتبات الأكاديمية القائمة في ذلك الوقت ، منها قسم الترجمة الذي يضم أعداداً كبيرة من المترجمين المجيدين للغات اليونانية واللاتينية والأسبانية وغيرها ، قسم المراجعة ويعمل به نخبة من العلماء المعروفين بغزارة علمهم كل حسب تخصصه وكان يسند إليهم مهمة مراجعة الكتب وتزيينها بالصور وتجليدها ثم عرضها في المكتبة ، وقسم التأليف الذي يشرف على تأليف الكتب لحساب المكتبة ، وقسم الفهرسة الذي تقع على عائقة مسئولية فهرسة وتصنيف الكتب (٣٨) .

تعرضت المكتبة لكثير من المحن القاسية بعد وفاة الحكم الثاني ، منها أن المنصور بن عامر الذي حكم الاندلس بعد وفاة الحكم بفترة أخرج من المكتبة جميع الكتب الفلسفية وكتب علوم الأوائل وأحراقها بالنار في الميدان العام في قرطبة إرضاء للعامة والفقهاء في زمانه (٣٩) .

ولعل آخر هذه المحن جاءت على يد الاسبان الذين دخلوا قرطبة وقضوا على الخلافة الأموية في الاندلس ودمروا قصورها وكل ما فيها ، ومنها مجموعات الكتب بالمكتبة .

وبين هذه وتلك فقد عصفت الفتن الداخلية في البلاد بكل شيء ، حتى انتكست المكتبة وأصبحت مجموعتها نهبا للطامعين .

هذه المكتبات الثلاث : مكتبة العباسيين في بغداد ، ومكتبة الفاطمين في القاهرة ، ومكتبة الأمويين في قرطبة – وهى مجرد نماذج من المكتبات الأكاديمية والتي ألمعنا إليها باختصار في الصفحات السابقة – كانت مكتبات بحث بالمعنى العلمي للكلمة ، بالاضافة الى مسئوليتها ودورها المكتبي في العمل على اقتناء وحفظ التراث الاسلامي والانساني سواء في لغته الأصلية أو مترجماً إلى اللغة العربية باعتبارها الوعاء الحاضن لهذا التراث ، ونظمته وقدمته إلى الباحثين والدارسين بأفضل الطرق وأيسر السبل باعتبارها مركز اشعاع علمي ومصدراً للتنوير الثقافي.

عكست هذه المكتبات – بكل صدق وافتخار – صورة الحياة الاسلامية بكل شموخها وجلال عظمتها ، وواكبت حركة البحث العلمي والتقدم الحضاري ، وأدت خدمات بارزة في نشر العلم واتساع الثقافة .

المبحث الثاني : ادارة المكتبات الاكاديمية

يعالج هذا المبحث مجموعة من العناصر الادارية التي كانت مطبقة في المكتبات الاكاديمية الاسلامية ، من حيث المبنى والأثاث ، العاملين ، الميزانية ، وذلك بطريقة مختصرة بهدف إعطاء صورة لما كانت عليه هذه العناصر في ذلك الزمن البعيد من أجل استبصار وضع هذه المكتبات إدارياً ومعرفة كيفية ادارتها حتى أصبحت على هذه الصورة الناضجة من التقدم والرقي .

١ - المبنى والأثاث :

لم تكن للمكتبات الأكاديمية في ظل الحضارة الاسلامية في أول عهدها أبنية خاصة بها ، بل كانت جزءاً غير مستقل من المؤسسة الأم التي تنشأ المكتبة في كنفها لخدمتها .

وتشير كل النصوص المتاحة بين أيدينا إلى أن " دار الحكمة " التي أسسها الحاكم بأمر الله الفاطمي في القاهرة سنة ٣٩٥هـ ، تعتبر أول مكتبة لها مبنى خاص بها ، أسس ليكون مكتبة ، وقد بلغ عدد قاعات هذا المبنى أربعين غرفة واسعة " تتسع الواحدة منها لأن يوضع بها ١٨ ألف كتاب (٤٠) " . وكانت تربط بين الحجرات أروقة فسيحة ، خصص بعضها للاطلاع وبعضها الآخر للنسخ والترجمة أو لعقد الحلقات العلمية والمناظرات ، وخصصت بعض حجرات للموسيقى يلجأ إليها الرواد للترفيه وتجديد النشاط .

ولم يأت القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي إلا وكانت هناك بالفعل مبان خصصت تماماً للمكتبات وشيدت خصيصاً لهذا الغرض ، فعلى سبيل المثال بنى بن أردشير وزير بهاء الدين البويهي في سنة ٣٨١هـ داراً للكتب في منطقة الكرخ في بغداد ، كما بنى عضد الدولة (٣٣٨ - ٣٧٢هـ) في شيراز مكتبة كبيرة ، كان لهذه المكتبة بناء مستقلاً تكون من قاعة كبرى وعدد من الغرف أو الخزائن (٤١) .

أما عن أثاث المكتبات الأكاديمية فكانت " مؤثثة تأثيثاً فخماً مريحاً ، وقد فرشت أرضها بالبسط والحصير لتلائم أذواق الشرقيين الذين كانوا يميلون إلى الجلوس على الأرض متقاطعة

أرجلهم للقراءة والكتابة ، وكان للنوافذ والابواب ستائر جميلة أما مدخل المكتبة فقد كانت له ستارة سميكة تحول دول دخول الهواء البارد في الشتاء إلى داخل الحجرات " (٤٢) .

وقد مر سابقاً وصف المقريزى لآثاث " دار الحكمة " عند افتتاحها ، فلا داعي لاعادة القول إدخاراً للجهد والوقت .

وجملة القول أن جميع أنواع الاثاث وتصميماته بالمكتبات الأكاديمية كان يساعد الباحث الفرد على البحث عما يريد ويوفر له الراحة التامة .

٢ – العاملون :

يمثل العنصر البشري في المكتبات الأكاديمية العامل الأساسي لنجاحها إذ يتوقف هذا النجاح على مدى كفاءة هذا العنصر وقدرته على القيام بالوظائف المكتبية المختلفة .

ولاتستطيع مكتبة من المكتبات مهما بلغت مقتنياتها من الضخامة أن تقدم خدمة فعالة للمستفدين ما لم يتوفر لديها موظفون على مستوى عال من الكفاءة والخبرة يستطيعوا اظهار مميزات هذا الرصيد الضخم بأفضل الطرق والاساليب .

من أجل هذا اهتمت المكتبات الاكاديمية بالقوى العاملة فيها من حيث الكم والكيف ، فحددت أنواع الوظائف المطلوبة ومسمياتها وعدد الموظفين في كل وظيفة ، والمؤهلات التي يجب أن تتوافر فيمن يشغلها ، ومسئوليات ومهام كل وظيفة .

وكانت المكتبات تحدد الوظائف المطلوبة أو عدد الموظفين على أساس حجم المكتبة وطبيعتها والعمليات التي تقوم بها ، ومع ذلك فهناك وظائف قل أن خلت منها مكتبة ذات شأن من المكتبات الأكاديمية في العالم الاسلامي .

وفي الفقرات التالية عرض مبسط لهذه الوظائف المكتبية من حيث مسمياتها ومسئولياتها والشروط الواجب توافرها فيمن يشغل كل وظيفة (٤٣) .

١ - الخازن :

وهو مدير المكتبة وأمينها الأول المسئول عن كافة الشئون العلمية والفنية والادارية بها ، وكان يناط به مسئولية تزويدها بالكتب والمواد المكتبية الأخرى واستبعاد مايرى استبعاده من الكتب ، والأشراف على الفهارس وحسن تنظيمها ، ومساعدة العلماء في ايجاد ما يبحثون عنه من كتب في موضوعات تخصصاتهم أو مجالات اهتماماتهم ، وكان فضلاً عن ذلك مسئولاً عن الموظفين بالمكتبة ، يشرف على أعمالهم ، ويعمل على تيسير العمل بها .

وفي الغالب الأعم كان للمكتبة خازن واحد يقوم بهذه المهام ، ولكن لضخامة بعض المكتبات وكثرة روادها زاد العبء الملقى على عاتق مدير المكتبة (الخازن) ، الأمر الذي جعل هذه المكتبات تعين أكثر من خازن ، ليتعاونوا فيما بينهم في تحمل هذه المسئوليات المكتبية الجسام .

وفي هذه الحالة اختلفت المسميات ، فكان الأول يسمى " الوكيل " وهو المشرف الأعلى للمكتبة ويسمى الثاني " الخازن " وهو أمين المكتبة ، في حين كان الثالث يسمى " المشرف " وهو مساعد أمين المكتبة .

ومهما يكن من أمر فكان يتم اختيار مدير المكتبة (الخازن) من فئة العلماء المثقفين ثقافة عالية ، لشغل هذا المنصب الهام ، ذلك أن وظيفة الخازن لم تكن عملاً ادارياً فحسب ، وانما هى عمل علمي في المقام الأول قبل كل شيء ، ولهذا فقد اختير لهذه الوظيفة جماعة من أساطين العلماء ومشاهير الأدباء من أمثال : سهل بن هارون مدير " بيت الحكمة " في بغداد ، ابن مسكويه مدير " مكتبة الوزير أبي الفضل بن العميد " في مدينة الري ، وعلي بن محمد الشابشتي مدير " دار الحكمة " في القاهرة ، وغيرهم كثير .

وفي الواقع أن سمعة المكتبات الأكاديمية وعظمتها وأهميتها تعود إلى جهد الرجال الذين تولوا ادارتها وأشرفوا عليها .

٢ - المترجمون :

هذه فئة اخرى عملت بالمكتبات الأكاديمية ، وهذا مؤشر صدق يدل على أن هذه المكتبات لم تكن تقليدية كما هو الحال في أيامنا هذه ، بل كانت مركز اشعاع علمي ومنيع من منابع الثقافة .

كانت النهضة العلمية التي إحتضنها المسلمون ورعوها حق رعايتها تعتمد في المقام الاول على الدراسات والؤلفات التي قام بها غير العرب من الشعوب ، من اجل هذا كان المترجمون حلقة اتصال علمي موصلاً جيداً بين العرب وهذه المؤلفات ، فعن طريقهم نقلت علوم الحضارات الأخرى كاليونانية والسريانية والقبطية والفارسية والهندية إلى اللغة العربية .

وقد تبوأ المترجمون مكانهم اللائق بهم في أول مكتبة أكاديمية عرفها العالم الاسلامي ، هي " بيت الحكمة " في بغداد ، حيث كانت أعمالهم مصدراً معتبراً من مصادر تزويد المكتبات ، وكانوا يمتازون بثقافة عالية فضلاً من معرفتهم بلغات وحضارات الأمم الاخرى ، وقد مر ذكر بعض هؤلاء المترجمين في معرض الحديث عن " بيت الحكمة " .

٣ - النساخ :

من مفاخر المكتبات الأكاديمية الاسلامية ، وجود قسم للنسخ بها - النشر في مصطلحات العصر - ، وهذا ما أخذت به معظم المكتبات الكبرى في العالم في عصرنا الحديث .

فلم تكن وسائل الطباعة وجدت أو حتى معروفة بطبيعة الحال ، لذا عملت المكتبات الأكاديمية على تعيين نساخاً يمتازون بجودة الخط وحسن الضبط وإتقان العمل بمهارة وفن رفيع.

وقلما خلت مكتبة من تعيين ناسخ أو اكثر للعمل بها ، كانت مهمتم نسخ الكتب الواردة إليهم ليزودوا بها المكتبة بنسخة منها ، وهي عملية حلت مكانها الطباعة فيما بعد .

وادى هؤلاء النساخ مهمتهم على أكما وجه وامدوا مكتباتهم بكل المؤلفات الجديدة دون تأخير أو تقصير .

وذكر ابن النديم ان من اشهر هؤلاء النساخ " علان الشعوبي " الذي عمل على رأ س النساخ في " بيت الحكمة " ، يقول عنه ابن النديم أنه من أصل فارسي ، وكان راوية عارفاً بالأنساب والمثالب والمناظرات (٤٤) .

والحال كذلك في كل من مصر والأندلس فأشار المقريزى في أكثر من موضع في "خططه" إلى النساخ الذين يعملون في " دار الحكمة " بالقاهرة (٤٥) كما أشار ابن خلدون إلى الشيء نفسه بالنسبة لمكتبة قرطبة (٤٦) .

٤ - المجلدون :

احتاجت حركة النسخ - النشر بمصطلحات العصر - إلى تجليد ما ينسخ من الكتب ، لدرجة أن البعض (٤٧) يشير إلى أن كلمتي " الناسخ " و" المجلد " كانتا متلازمتين تقريباً .

وحظى تجليد الكتب بعناية كبيرة في كل من المكتبات الاكاديمية في مصر والأندلس ، حيث كانت " مالقة " بالأندلس أكثر المدن براعة واتقاناً في صناعة الجلود . وارتبط بالتجليد فن آخر . اتقنه المسلمون هو التذهيب (٤٨) .

٥ - المناولون :

تقتصر وظيفة هذه الفئة من العاملين في المكتبات الأكاديمية على إرشاد القراء إلى موضوع الكتب على الرفوف أو احضارها لهم ، وهى وظيفة متواضعة ولكنها ضرورية في تسيير حركة الاطلاع والبحث في المكتبة ، ويمكن أن نطلق على هذه الوظيفة " الأعمال او الخدمات المساعدة " وهي توجد الآن في كل المكتبات الكبرى في العالم شرقه وغربه .

وأغلب الظن انه لم تشترط مؤهلات معينه أو خبرة محددة فيمن يتولون مهام هذه الوظيفة ، سوى معرفتهم بالقراءة والكتابة ، حتى يؤدوا أعمالهم عل أكمل وجه .

ومن الطريف أن بعض النسوة كن يقمن بأداء هذه الوظيفة في المكتبات فيذكر أبو العلا المعري أن جارية تدعى " توفيق السوداء " كانت تقوم بنفس العمل في " دار العلم " في بغداد على زمان أبي منصور محمد علي الخازن (٤٩) .

وأخيراً تأتي فئة المستخدمين المسئولة عن حراسة وتنظيف المكتبة وترتيب الأثاث فيها ، ويذكر المقريزى أنه عين بـ " دار الحكمة " في القاهرة قوام (خزنة) وخدام (مناولون) وفراشون (٥٠) .

أما عن الرواتب التي كانت تتقاضاها هذه الفئات الخمس مقابل عملهم في المكتبات الأكاديمية ، فيتم معالجتهم في العنصر التالي .

المخصصات المالية :

يتوقف نجاح المكتبات الأكاديمية في تحقيق أهدافها على ماتوفره لها الهيئة الأم من دعم مالي يساعدها في تكون مجموعاتها من الكتب والمواد الأخرى ، ويعينها على استقطاب العاملين من ذوي الخبرة والكفاءة ، وعلى توفير الأثاث والأجهزة والأدوات اللازمة للعمل ، وذلك لتقديم خدمة مكتبية متكاملة لرودها من الباحثين والعلماء .

وفي الواقع لم يبخل خلفاء المسلمين وأمراؤهم أو يضنوا على المكتبات الأكاديمية من الناحية المالية ، بل كانوا ينفقون عليها بسخاء .

ولم يقتصر الأمر على العاملين في هذه المكتبات ، بل كان يمتد هذا السخاء ليشمل روادها من القراء والباحثين والعلماء ، حيث " قدمت بعض المكتبات رواتب لمن يفد إليها ويقيم فيها من طلاب وباحثين (٥١) .

وبالاضافة الى ما كان يخصصه الخلفاء المسلمون من اعتمادات مالية لهذه المكتبات ، كانت الأوقاف بمثابة المصدر الثاني ، الذي ينفق منه على هذه المكتبات وما يلزمها .

وكانت ميزانية المكتبات تتضمن أوجه الصرف التالية :

١ - المرتبات :

تضمنت ميزانية المكتبات الاسلامية بند المرتبات ، وهذا النظام معمول به في كل المكتبات في أوربا وأمريكا في عصرنا الحالي ، على اعتبار أن للمكتبة وحدة حسابية واحدة وميزانية مستقلة .

ارتبطت مرتبات الموظفين بهذه المكتبات الاكاديمية بدرجاتهم الوظيفية ، وما يؤدونه من أعمال منوطة بهم وما يبذلونه من جهد ، وهذه مفارقة جديرة بالتوقف والدارسة ، حيث تدل على تقدير العمل المكتبي واعتباره عملاً راقياً محترماً ، كما تدل أيضاً على تقدير جهود العاملين بهذه المكتبات ، مما يدفعهم إلى بذل أقصى جهد وأداء عملهم على درجة من الكفاءة العالية ، وما أحوجنا أن نطبق هذه القيم في مكتباتنا في عصرنا الحالي .

ولا ندري على وجه الدقة حجم الميزانية السنوية المخصصة لهذه المكتبات ، فلا يوجد لدينا سجلات منظمة دقيقة تحدد مثل هذه الميزانية ، فقد عجزت كل المصادر عن تحقيق مثل هذا البيان ، ومع ذلك يمكن القول إجمالاً - من خلال فحص النصوص المتاحة - أن الميزانية المخصصة لهذه المكتبات لم تكن قليلة بحال من الأحوال ، وقد مر سلفا في أكثر من موضع في هذا البحث ، أن الخلفاء والأمراء المسلمين كانوا ينفقون بسخاء على هذه المكتبات ، كما أوقفوا عليها الأوقاف الضخمة للصرف عليها أيضاً .

واعتمدت كل المصادر المتاحة في التعرف على حجم الميزانية السنوية لهذه المكتبات بصورة تقريبية على ما ذكره المقريزى في " خططه " ، ولكن قبل عرض وتحليل نص البيان الذي ذكره المقريزى ، يجب التنويه أن هذه الميزانية خاصة بـ " دار الحكمة " التي أنشأها الفاطميون في القاهرة سنة ٣٩٥هـ ، ومع ذلك يمكن الاستهداء بها في التعرف على ميزانية هذه المكتبات إلى حد ما ، عملاً بالمبدأ القائل " ان لم يكن ماتريد فأرد ما يكون " ، مع اعتبار

الزيادة السنوية المتعارف عليها في إعداد ميزانيات المكتبات لمواجهة الزيادة المتوقعة سواء في شراء الكتب او الادوات اللازمة ، أو لمواجهة زيادة أعباء المعيشة .

يورد المقريزى (٥٣) قائمة بالنفقات السنوية لـ " دار الحكمة " ، وأشار بداية إلى أن حجمها الاجمالي يبلغ (٢٥٧) ديناراً من العين المغربي ، وفيما يلي بيان توزيعها :

– ثمن ورق النسخ	٩٠ ديناراً
– راتب الخازن	٤٨ ديناراً
– راتب الفراش	١٥ ديناراً
– راتب المشرف على الحبر والورق والاقلام	١٢ ديناراً
– تجليد واصلاح الكتب وترميمها	١٢ ديناراً
– ثمن الماء	١٢ ديناراً
– ثمن الحصر العبداني	١٠ دنانير
– ثمن لبود للفرش في الشتاء	٥ دنانير
– ثمن طنافس في الشتاء	٤ دنانير
– أجرة وترميم وصيانة الستارة	١ دينار

ومن الممكن ان نستنتج عدة أمور من استقراء هذا البيان نجملها فيما يلي :

١ – يبلغ اجمالي النفقات (٢٠٩) دنانير وليس (٢٥٧) ديناراً وهو الاجمالي الكلي للميزانية ، وأغلب الظن ان المبلغ المتبقي وهو (٤٨) ديناراً ترك كاحتياطي لمواجهة ما يستجد من نفقات طارئة .

٢ – يبدو أن المبلغ المخصص لورق النسخ وقدره (٩٠) ديناراً كان يتضمن مرتب الناسخ أيضاً .

٣ – أن بيان الميزانية موزع على ثلاثة بنود أو أوجه للصرف هي :

– المرتبات وأجور العاملين .

– المشتريات .

– نثريات .

وهذه الأوجه هي المعمول بها في ميزانيات المكتبات الكبرى في عالمنا المعاصر .

٢ – الشراء والترميم :

يلاحظ أن ميزانية الشراء هنا تنصب على الأدوات والأجهزة والأثاث ، دون ذكر بند شراء الكتب ، وأغلب الظن أن ميزانية شراء الكتب كانت مستقلة عن الميزانية السابقة ، كما كان تزويد المكتبة يتم بطرق أخرى علاوة على الشراء مثل النسخ أو الوقف .

ومن الملاحظ ان بيان الميزانية السابقة به بند عن ترميم الكتب ، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل عل كثرة استعمال الكتب من ناحية ، كما يدل على نضج الوعي المكتبي لدى القائمين على أمر هذه المكتبات من ناحية اخرى .

ومن ناقلة القول ، أن حجم الميزانية يختلف من مكتبة الى اخرى ومن مكان إلى آخر ، كما يختلف أيضاً – بالتبعية – مرتبات العاملين ، فعلى سبيل المثال يذكر ابن أبي أصيبعة أن المأمون كان يعطي حنين بن اسحق من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى اللغة العربية مثلاً بمثل (٥٣) .

المبحث الثالث : تنظيم المكتبات الأكاديمية

يحاول هذا المبحث الاجابة على التساؤلين التاليين :

- هل كانت مجموعات المكتبات الأكاديمية منظمة تنظيماً فنياً من شأنه تيسير استخدامها من قبل الرواد من القراء والباحثين والعلماء ؟

- إذ كانت الاجابة بالإثبات ، فما هى الطرق أو النظم التي اتبعتها هذه المكتبات في تنظيم مجموعاتها ؟

وقبل الاجابة على هذين التساؤلين ، تجدر الاشارة الى ان المقصود بتنظيم المجموعات هنا ، إعدادها فنياً من حيث فهرستها واعداد فهارس لها ، ومن حيث تصنيفها وترتيبها على الرفوف تبعاً لعناصر الخطة المطبقة .

بادىء ذى بدء يجب أن نعرف أن مجموعات الكتب والمواد المكتبية الأخرى ، مهما تضخمت حجماً وتنوعت موضوعاتها ، فلا فائدة منها إن لم تتبع نظاماً معيناً في تنظيمها ، من شأنه يتيح عملية الإفادة منها بطريقة منطقية سهلة ميسرة تساعد على الوصول إلى هذه المواد واسترجاعها بأسلوب منهجي .

والواقع – كما تبين من فحص المعلومات التي ذكرتها المصادر المختلفة – اننا نجد ان اوائل مؤسسي المكتبات انتبهوا لهذه الناحية التنظيمية ، وأولوها عناية كبيرة وبذلوا فيها الشيء الكبير ، فعرفوا الفهارس وأهميتها وكيفية اعدادها ووظيفتها في التعرف على بيانات الكتب ، ثم عرفوا نظم الترتيب التي تحتاج اليها الكتب وأهمية ذلك في الوصول إليها عند الحاجة .

والنصوص التالية تؤيد ما نذهب إليه :

– حدث الحسن بن سهل قال : قال لي المأمون يوماً : أى كتب العجم أشرف ؟ فذكرت كثيراً منها ثم قلت : جاويذان خرد (يتيمة السلطان) ياأمير المؤمنين . فدعا المأمون بفهرست كتبه وجعل يقلبه فلم ير لهذا الكتاب ذكراً . فقال : كيف يسقط ذكر هذا الكتاب من الفهرست ؟ (٥٤) .

- يسجل أبو الحسن البيهقي أنه رأى بنفسه فهارس كتب الصاحب بن عباد وأن تلك الفهارس كانت تقع في عشرة مجلدات (٥٥) .

- بلغت فهارس الدواوين الشعرية في مكتبة الحكم الثاني خليفة قرطبة أربعة وأربعين فهرساً في كل فهرس عشرون ورقة ، فكيف بفهارس سائر الموضوعات من الفلسفة وعلوم دينية ونحوية وتاريخية وطبية .... الخ (٥٦) .

- كما ذكر ياقوت الحموي في معرض حديثه عن البيروني العالم الشهير ، أنه شاهد فهرس كتبه في وقف الجامع بمرو في نحو الستين ورقة بخط مكتنز (٥٧) .

هذه عينة من النصوص المتاحة ، اكتفيت بتسجيلها منعا للتوسع والافاضة وتحقيقا للإيجاز والإختصار .

نستنتج من هذه النصوص وغيرها مما يماثلها عدة أمور هي :

١ - يعتقد انه لم تخل مكتبة ذات شأن سواء كانت أكاديمية أو خاصة أو غيرهما من فهرس يرجع إليه لاستعمال مجموعات الكتب ، وليسهل تناولها ولايتعب مناولها .

٢ - أن جل هذه الفهارس كانت مرتبة ترتيباً موضوعياً ، أي وفقاً لموضوعات الكتب ، وهذا مايشبه الفهرسة الموضوعية بمصطلحات هذا العصر .

٣ - اتخذت الفهارس شكل الكتب ، حيث كانت تكتب في مجلدات تستعمل كالكتب ، فيرجع إليها المطالع من أجل معرفة محتويات المكتبة ، وهذا الشكل يسمى بمصطلحات الفهرسة الوصفية في عصرنا هذا " الفهرس المطبوع " أو " الفهرس الكتاب " أي الذي يعد على هيئة كتاب .

وكان هناك نوع آخر ، يمكن أن نطلق عليه لفظ " الفهارس " تجاوزاً ، عبارة عن ورقة خاصة توضع على كل دولاب من دواليب الكتب ، ومسجل عليها أسماء المؤلفين وعناوين الكتب التي يحويها ذلك الدولاب ، وأحياناً أرقام هذه الكتب وأي ملاحظات أخرى مثل فقد

بعض أوراق الكتاب أو أحد اجزائه ، ويمكن أن نطلق على هذا النوع - بمصطلحات الفهرسة الوصفية - قائمة الأرفف .

وقد استخدم هذا النوع في مكتبة " دار الحكمة " التي أنشأها الفاطميون في القاهرة سنة ٣٩٥هـ ، وكانت هذه الفهارس مرتبة بطريقة موضوعية فمنها " الفقه على سائر المذاهب ، والنحو واللغة وكتب الحديث والتواريخ وسير الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء من كل صنف ... كل ذلك بورقة مترجمة ملصقة على كل باب خزانة وما فيها من المصاحف الشريفة " (٥٨) .

وإذا تركن الفهرسة بشقيها الوصفي والموضوعي ، وانتقلنا إلى الجناح الآخر من الترتيب ألا وهو " التصنيف" ، فنجد أيضاً أن المكتبات الاسلامية على أنواعها وخاصة الأكاديمية منها، قد عرفت نوعاً ما من ترتيب الكتب أو تصنيفها في فئات متجانسة ، على اعتبار أن التصنيف أداة البحث والوصول إلى المطلوب من الكتب .

وتجمع كل المصادر المتاحة - والتي رجع الباحث إليها - إلى وجود نوع من التصنيف في المكتبات الاسلامية ، وكانت أغلب هذه المكتبات مصنفة حسب الموضوعات ، مثل مكتبة الحاكم بأمر الله الفاطمي " دار الحكمة " .

ويذكر أبو شامة في كتاب الروضتين أن صلاح الدين الأيوبي قد وجد مكتبة الخلفاء الفاطميين في أواسط القرن السادس الهجري مفهرسة ومصنفة ، وخزائنها في القصر مرتبة البيوت مقسمة الرفوف مفهرسة بالمعروف (٥٩) .

ويعتقد أحد كبار الباحثين من أساتذة المكتبات (٦٠) أن الفهرست لابن النديم ماهو الا تصنيف لاحدى المكتبات الموجودة في ذلك الوقت ، فليس من المعقول أن يتجاهل ابن النديم أو غيره من ببليوجرافيي أى عصر آخر ، الطريقة السائدة التي تقدم بها أوعية المعلومات في ذلك الوقت ، ومن ثم فترتيب فهرست ابن النديم يعكس الصورة الكاملة لنظام التصنيف المطبق في مكتبات ذلك العصر .

وأغلب الظن أن هذا الاعتقاد صحيح كل الصحة ، ذلك أن منهج إعداد خطط التصنيف يقوم على إحدى ركيزتين : التصور أو الواقع ، بعبارة أخرى تصنيف المعرفة ، أو تصنيف الكتب ، ويبدو أن ابن النديم اختار الواقع وهو تصنيف الكتب وأعد فهرسته وفقاً لذلك ، ولاغرو في ذلك فمكتبة الكونجرس الأمريكية وهي أكبر مكتبات العالم قاطبة في عصرنا الحالي ، أعدت تصنيفها المعروف بـ" تصنيف مكتبة الكونجرس " على اساس من الواقع واستمدت هيكله وعناصر بنائه من موضوعات الكتب الموجودة فيها فعلاً .

تتكون خطة التصنيف التي استخدمها ابن النديم في ترتيب فهرسته – والتي يعتقد انها كانت مطبقة في المكتبات الاسلامية وقتذاك – تتكون من الأبواب أو الاقسام العشرة التالية كما أوردها ابن النديم :

١ – القرآن	٦ – الفقه
٢ – النحو	٧ – الفلسفة
٣ – التاريخ	٨ – السمر
٤ – الشعر	٩ – الاديان
٥ – العقائد	١٠ – علم الصفة

وبنظرة فاحصة لهذه الاقسام العشرة نجد أن الستة الأولى منها موضوعات إسلامية أو عربية ، أما الأربعة الاخيرة فخصصت للموضوعات غير الاسلامية .

ومن وجهة نظر الباحث يمكن القول أن " ملفيل ديوى " صاحب " التصنيف العشرى " الشهير قد استفاد من تصنيف إبن النديم ، في تقسيم تصنيفه إلى عشرة أبواب أو رتب بالرغم من الفارق الزمني بينهما على أساس تراكمات المعرفة البشرية وايحاءاتها .

وكانت ترتب الكتب على الرفوف في المكتبات الأكاديمية موضوعياً ، مستلقية الواحد تلو الآخر تبعاً لحجومها ، بحيث تكون المجلدات الكبيرة في الأسفل والصغرى في الأعلى حتى لاتتساقط ، كما كانت تكتب بيانات كل كتاب : عنوانه واسم مؤلفه على أطراف صفحات الكتاب ، بحيث تكون في مواجهة القاريء أو الباحث الذي يبحث عن كتاب معين ، أما

الكتب النفسية فكانت تحفظ في صناديق أعدت لتتناسب مع حجم كل كتاب ، وعلى جانب كل صندوق كتبت بيانات الكتاب : عنوانه واسم مؤلفه .

وجملة القول أن المكتبات الاسلامية – بما فيها الاكاديمية – اتبعت نوعاً من الفهرسة وآخر من التصنيف أتاحاً لها حسن استخدام مقتنياتها يجعلها متاحة في متناول المستفيدين بأيسر السبل وأقل الجهد والوقت .

وأنتج نظام الفهرسة المطبق نوعين من الفهارس ، أحدهما الفهرس المكتوب على هيئة كتاب ، والآخر هو الفهرس المثبت على الرفوف ، كما عكس نظام التصنيف الفروع المختلفة لموضوعات المعرفة السائدة وقتذاك .

وقد أوفى هذا وذاك باحتياجات ومتطلبات واهتمامات جمهور المستفيدين من ناحية ، كما تناسب وتواءم مع طبيعة المقتنيات وموضوعاتها من ناحية أخرى .

المبحث الرابع : خدمات المعلومات بالمكتبات الاكاديمية

يعالج هذا المبحث مفهوم الخدمة المكتبية وأنواع الخدمات التي كانت تقدمها المكتبات الاكاديمية لروداها من الدارسين والباحثين والعلماء ، كما يتعرض بشيء من الاختصار إلى بيان أثر ذلك أو مردوده على الشعوب العربية والغربية .

مفهوم الخدمة المكتبية :

تعتبر الخدمات المكتبية من الخدمات الأساسية التي تقدمها المكتبات الاكاديمية ، باعتبارها مؤسسات علمية وتعليمية في آن واحد ، فضلاً عن كونها ملمحاً من ملاح التقدم العلمي والتعليمي ، لذاا حرصت هذه المكتبات على اتاحة مجموعاتها من الكتب والمواد الأخرى لأكبر عدد ممكن من العلماء والباحثين والطلاب والدارسين .

ولم تكن هذه المكتبات مجرد أماكن لحفظ مجموعات الكتب ، ولكنها كانت أهم من ذلك حيث تبلورت رسالتها في خدمة التعليم والبحث العلمي ، كما تحدد هدفها في مساندة وغرس وتنمية القدرة على الحصول على المعلومات لمن يؤمها من الطلاب والباحثين ، وهذا ما يسمى بـ " التعلم الذاتي " أو " التثقيف الذاتي "

وبالرغم من نشأتها في الزمن البعيد إلا أنها كانت تؤدي كافة الخدمات المكتبية التي تؤديها المكتبات في عصرنا هذا ، سواء أكانت خدمات مباشرة أو غير مباشرة بكفاءة واقتدار.

وإذا كان خبراء المكتبات وأساتذتها – في عصرنا الحالي – قد أجمعوا رأيهم على أن المكتبات الاكاديمية تؤدى ثلاث وظائف هي : خدمة الدراسة والبحث والمجتمع ، فإن المكتبات الأكاديمية في الحضارة الاسلامية قامت بأداء هذه الوظائف على اكمل وجه ، بالرغم من الفارق الزمني والتطور التكنولوجي .

ومن خلال ما تقدم فإن مفهوم الخدمة المكتبية في المكتبات الاكاديمية ، تبلور حول تقديم أوعية الكتب إلى مريديها من القراء والباحثين سواء أكان اطلاعاً داخلياً أو استعارة خارجية، كما امتد ليشمل الإرشاد القرائي والمرجعي .

انواع الخدمات المكتبية :

تمثلت الخدمات المكتبية التي قدمتها المكتبات الأكاديمية في نوعين رئيسيين هما :

١ - خدمة الإعارة الخارجية :

سمحت المكتبات الأكاديمية بالاعارة الخارجية للقراءة أو للنسخ أو للمقابلة والتصحيح ، وكانت هناك أصول وقواعد يجب أن يلتزم بها المستعيرون منها (٦١) :

١ - أن يدفع المستعير ضماناً أو رهناً للكتب التي يستعيرها ، وهذا ما يطلق عليه في أيامنا هذه (تأمين) ، ومع ذلك كان يعفى من هذا التأمين بعض المستعيرين من العلماء ، وهذا يتوقف على وجود أكثر من نسخة من الكتاب ، فضلاً عن سمعة المستعير الاجتماعية ومكانته العلمية .

٢ - تحديد مدة الاعارة ، حيث كان هناك وقت محدد يلتزم به المستعير لرد ما استعاره دون تجاوز هذا الوقت ، وكانت هذه المدة لاتتجاوز شهرين .

٣ - أن يلتزم المستعير بالمحافظة على الكتاب المعار إليه تمام المحافظة ، ولا يجوز أن يصلحه بغير إذن صاحبه ، ولا يكتب شيئاً في بياض فواتحه أو خواتمه أو هامشه إلا إذا علم رضا صاحبه .

٢ - خدمة الاطلاع الداخلي :

كانت بعض المكتبات لا تسمح بإعارة كتبها خارجياً ، وخاصة إذا كانت نسخة واحدة أو نسخة ثمينة وقيمة ، خوفاً من ضياعها ، واقتصرت - في أغلب الأحيان - على الاطلاع الداخلي ، وهذا النظام ليس بغريب فهو متبع الآن في المتحف البريطاني .

ومن مفاخر المكتبات الاسلامية أن السلطات المسئولة عنها كانت تزود الرواد بالورق والحبر وأقلام الغاب (البوص) بل كانت تزود العلماء الذين يفدون إليها من أماكن بعيدة بالمأكل والمشرب والمأوى مجانا (٦٢) .

آثار النهضة المكتبية على العرب والغرب :

انعكست أثار النهضة المكتبية القائمة في المكتبات الأكاديمية على العلماء والأدباء المسلمين ، حيث استفادوا من محتوياتها وما اقتنته من كنوز في مجالات العلم والمعرفة ، فلم يتخذوا المكتبات لتزجية وقت الفراغ أو إضاعة الوقت ، بل استفادوا منها في مجالات البحث والدرس والتأليف .

إن الانتاج العلمي والأدبي الضخم الذي قدمه علماء الاسلام وأدباؤه ، مرجعه بالدرجة الأولى إلى حسن استخدام للمواد المكتبية الموجودة في المكتبات استخداماً أمثلاً ، فالجاحظ العالم الموسوعي الذي جمع فأوعى وألف المؤلفات الضخمة أفاد كل الافادة من مقنيات هذه المكتبات ، وهذا ابن سينا العالم والطبيب مدين بعلمه ومؤلفاته إلى حسن استفادته من محتويات المكتبات في عصره ، كذلك استفاد المؤرخ الكبير ابن مسكويه من عمله خازناً لمكتبة عضد الدولة البويهي ، فاستمد منها مادة كتبه في التاريخ والاخلاق (٦٣) .

حتى الخلفاء والحكام استفادوا من المكتبات الأكاديمية التي أنشأوها ، فها هو المأمون قد استفاد من " بيت الحكمة " واشتهر بالعلم والذكاء لكثرة ما قرأ وبحث ، وكذلك الحكم الثاني صاحب " مكتبة قرطبة " الذي قلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر .

ويعترف كل ياقوت الحموي وابن خلكان باستفادتهم من مقتنيات المكتبات في تأليف كتبهم التي تعتبر مصدراً أصيلاً من مصادر البحث المعتمد ، فيذكر الأول أن فوائد هذا الكتاب (يقصد معجم البلدان) وغيره مما جمعته من تلك الخزائن (٦٤) . ويذكر ابن خلكان أن كتابه " وفيات الأعيان " استمد مادته العلمية من المعلومات الموجودة في المكتبات (٦٥) .

ولم تتوقف آثار النهضة المكتبية عند حدود دول العالم الاسلامي بل امتدت لتشمل معظم دول اوروبا ، فاستمرت الحضارة الاسلامية مزدهرة على مدى أكثر من ستة قرون (القرن السابع الميلادي حتى القرن الثالث عشر الميلادي) ، كانت البلاد الاسلامية خلالها مركز ثقل علمي وثقافي ، في حين كانت دول اوروبا ترزخ تحت وطأة الجهل والتعصب وضغط الكنيسة والاقطاع حتى عرفت عندهم هذه الفترة باسم " العصور الوسطى المظلمة " .

ففي الوقت الذي كانت فيه مقتنيات المكتبات الأكاديمية في العالم الاسلامي تعد بمئات الألوف وتعج بعشرات المئات من الدارسين والباحثين ، كانت المكتبات في اوروبا مقصورة على الأديرة ولايطلع على مجموعاتها إلا الرهبان والكهنة .

ولكن هذه الصورة المشرفة للنهضة المكتبية في العالم الاسلامي لم تستمر طويلاً ، حيث بدأت البلاد تئن تحت وطأة الفتن والصراعات الداخلية ، وسادها الجهل وعمها الجمود والتعصب والتحزب ، علاوة على هجمات أعدائها التي تمثلت في الغزو المغولي (منذ أوائل القرن الثاني عشر الميلادي) والغزو الصليبي الذي عرف تاريخيا باسم " الحروب الصليبية " التي استمرت قرنين تقريبا (١٠٩٦ - ١٢٩١) .

وبدأ التراث الاسلامي ينتقل إلى اوروبا ، واتخذ سبيله عبر طرق ثلاث هي : طريق صقلية وجنوبى ايطاليا ، طريق الأندلس الاسلامية ، طريق الاحتكاك المباشر بين الشرق والغرب اثناء الحروب الصليبية .

ولم يكد القرن الثالث عشر الميلادي يطل برأسه على الدنيا ، حتى وجدت اوروبا تحت تصرفها التراث العلمي الاسلامي في مجالات الطب والكيمياء والطبيعة والرياضيات والفلك .

وعكف العلماء في اوروبا على ترجمة هذا التراث إلى اللغة اللاتينية وهى لغة البحث والدراسة والتأليف آنذاك في اوروبا . ثم أعملوا فيه العقل بحثاً ودراسة وتنقيباً واستنتاجاً .

وعلى عاتق التراث العربي الاسلامي بنت اوروبا حضارتها ونهضتها القائمة حتى الآن ، ومن خلال مجموعاته النفيسة كونت المكتبات في اوروبا مجموعاتها ونهضت الحركة المكتبية في مختلف البلاد الأوروبية .

هذه صورة مبسطة لما كانت عليه المكتبات الأكاديمية في الحضارة الاسلامية في اتساعها وحسن تنظيمها وغزارة مجموعاتها وتنوع خدماتها ، ودورها الهام والمؤثر في خدمة النهضة العربية ثم الحضارة العالمية فيما بعد .

خاتمة

هذه صورة مبسطة ولوحة مصغرة لنوعية واحدة من أنواع المكتبات الاسلامية ، ألا وهي " المكتبات الأكاديمية " التي بلغت شأوا عظيماً في الحضارة الاسلامية ، في عصر عزت فيه الطباعة والورق والتنقل والاتصال بين العلماء ، وإنها لتعطي للمسلمين اليوم ثقة في دينهم الذي شجع العلم والعلماء ، هذه الصورة – على بساطتها – قدمتها لأستنهض همم المسلمين اليوم للبحث والدرس كما نهض آباؤهم من قبل حاملين مشاعل الحضارة ونبراس المدنية في أحلك عصور التاريخ – تاريخ العصور الوسطى – حيث كانت اوروبا تموج في جهل مظلم أنذاك .

وفي الختام لايدعى الباحث الكمال كله في بحثه هذا ، أو أنه أوفى الموضوع حقه ، وإنما هى محاولة متواضعة قصد منها إثارة لهمم باحثين آخرين ليطرقوا الموضوع أو بعض نواحيه بشكل أكمل وأفضل ، كما كان القصد أيضا إماطة اللثام عن الجوانب المشرفة في واحدة من دعائم الحضارة الاسلامية في أزهى عصورها ألا وهى :" المكتبات الأكاديمية " ، وإن كنت وفقت في ذلك فبفضل من ا لله ، وإن كانت الأخرى فهو جهد المقل ، والانسان يطلب العلم دوماً ، كما قال الرسول الكريم صلى ا لله عليه وسلم " لايزال الرجل عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل " صدق رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم .

نتائج وتوصيات

ابرز النتائج :

كشفت الدراسة عن مجموعة من النتائج نسجل أبرزها فيما يلي :

١ - كان وراء ظهور المكتبات الأكاديمية في الحضارة الاسلامية عقيدة إيمانية تمثلت في موقف الاسلام من العلم والمعرفة ، وهى الدعوة إليهما كما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

٢ - واكبت المكتبات الأكاديمية حركة المد الحضاري ، كانت مرآة صادقة عكست صورة الحضارة العلمية والاسلامية بكل شموخها وأصالتها .

٣ - اعتمدت المكتبات الأكاديمية في بناء مجموعاتها على مصادر أساسية أكثر مما هى معمول بها الآن - اذا ما وضعنا في إعتبارنا امكانات ذلك العصر - تباينت ما بين شراء ووقف ونسخ وإهداء .

٤ - بلغت المكتبات الأكاديمية درجة عالية من التنظيم الفني لمقتنياتها سواء في الفهرسة وإعداد الفهارس أو التصنيف ونظم الترتيب .

٥ - ساعدت المكتبات الأكاديمية على خدمة البحث العلمي والنهوض به ، وأتاحت الفرصة للعلماء المسلمين في إجراء بحوثهم ، فلم تكن مكتبات تقليدية كما هي الآن ، بل كانت مراكز بحث حية ومتجددة بالمعنى الواسع لمفهوم البحث العلمي .

٦ - لعبت المكتبات الأكاديمية دوراً كبيراً في النهوض بحركة التأليف والنشر ، مما أدي الى زيادة المعرفة العلمية وتراكمها ، وذلك بما حفظته من كتب ومن خلال ما بثته من معلومات لروادها من العلماء والباحثين ، كانت مصدراً أصيلاً لمؤلفاتهم في المجالات العلمية المختلفة .

٧ - كانت المكتبات الأكاديمية مؤسسات علمية لعبت دوراً هاماً في النهضة الاسلامية ، وامتد اثرها على اوروبا التي تعرفت عن طريقها على أسس النهضة العلمية بما نقلته (أو نهبته) من مؤلفات العلماء المسلمين في المجالات العلمية المختلفة .

اهم التوصيات :

ونسجل فيما يلي أهم التوصيات :

١ - يحتاج تاريخ الكتب والمكتبات في الحضارة الاسلامية إلى دراسات وبحوث تكشف عن مختلف جوانب العظمة في هذا التاريخ بالنسبة لنوعيات المكتبات الأخرى : العامة - المدرسية - الخاصة - المسجدية .... الخ .

٢ - يجب العناية بالتراث العلمي العربي والكشف عن أماكن وجوده المتناثرة في غرب العالم قبل شرقه ، من أجل إماطة اللثام عنه تجميعاً ودراسة وتحقيقاً ونشراً .

٣ - توجيه الدراسات وتكثيف البحوث لبيان الدور العربي العلمي في بناء النهضة الاوروبية الحديثة ، فالحضارة العلمية الغربية التي نراها الآن ، لم تكن نتاج أوروبا وحدها ولم يقتصر وجودها على الدول الغربية ، بل هي حضارة جميع الأمم مشتركة ، وعلى رأسها إسهامات الحضارة العربية الاسلامية وهي في اوج عظمتها ونهضتها العلمية .

هذه أبرز النتائج وأهم التوصيات التي انبثقت من خلال دراسة موضوع " المكتبات الأكاديمية في الحضارة الاسلامية " سجلتها بصورة مختصرة راجياً الافادة منها أو من بعضها ، والله أسال أن يلهمنا صائب القول وحسن العمل .

مصادر البحث وهوامشه

١ - عبد الستار الحلوجي . المخطوط العربي . - ط ٠٢ - جدة : مكتبة مصباح ، ١٩٨٩. ص ٤٧ .

٢ - سورة الفرقان ٢٥ : ٥

٣ - سورة الاسراء ١٧ : ٩٠ - ٩١

٤ - سورة الانعام ٦ - ٧

٥ - محمود الشنيطي . الكتاب العربي بين الماضي والحاضر . - القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر د.ت . ص٢ -٣ . وأيضاً : عبد الستار الحلوجي . مرجع سابق ص ٢١ وما بعدها .

٦ - يذكر القلقشندي أن أول مصنع للورق أسس عام ٧٩٣م وكان ذلك في عهد الخليفة هارون الرشيد (٧٧٦ - ٨٠٩م) الذي أمر الناس ألا تكتب إلا على الكاغد (أى الورق) لأن الجلود ونحوها تقبل المحو بخلاف الورق (انظر : القلقشندي ، أبو العباس احمد ، صبح الأعشي في صناعة الانشا . - القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٩١٤ - ١٩١٩ . جـ ٢ ، ص ٤٧٥ - ٤٧٧) .

٧ - هونكه ، زيغريد . شمس العرب تسطع على الغرب : أثر الحضارة العربية في اوروبا / نقله عن الألمانية فاروق بيضون ، كمال دسوقي ؛ راجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الخوري .- بيروت : المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، ١٩٦٤ . ص٤٦ .

٨ - القلقشندي ، أبو العباس احمد . مرجع سابق ص ٤٧٦ .

٩ - البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر . فتوح البلدان . - القاهرة : د . ن ، ١٣٥٠هـ . ص ٤٥٧ .

١٠- سورة العلق ٩٦ - ١ .

١١- أفاضت مصادر كثيرة في ذكر قصة التدوين عامة وتدوين القرآن الكريم خاصة ، نذكر منها على سبيل المثال لمن يريد الاستزادة :

- عبد الستار الحلوجي . مرجع سابق ص ٧٠ - ٧٢ .

- عبد اللطيف الصوفي . لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات . - دمشق : دار طلاس، ١٩٧٨ . ص ١٧٥ .

- جورجي زيدان . تاريخ التمدن الإسلامي . - ط ٠٢ - القاهرة : د.ن ، ١٩٣٨. جـ ٣ ، ص ٦٤ .

- محمد محمد أمان . الكتب الاسلامية ، ترجمة سعد بن عبدا لله الضبيعان . - الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٩٩٠ . ص ١ -٢ .

- محمد ماهر حمادة . المكتبات في الاسلام ، نشأتها وتطورها ومصائرها . - ط ٥ . - بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٦ . ص ٣٧ - ٣٨ .

١٢- احمد شلبي . التربية الاسلامية : نظمها ، فلسفتها ، تاريخها . - ط ٦ . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٨ . ص ١١٣ .

١٣- للاستزادة في حركة الترجمة من حيث هى عامل حضاري انظر :

- هونكه ، زيغريد . مرجع سابق ص ٣٧٨ - ٣٨٤ .

١٤- محمد محمد أمان . مرجع سابق ص ٤٨ وما بعدها .

- انتشرت دكاكين (حوانيت) الوراقين منذ مطلع الدولة العباسية بسرعة انتشاراً ملحوظاً في كبريات المدن والبلدان المختلفة بالعالم الاسلامي ، فكان في بغداد مائة حانوت للوراقين ، وكذلك كان في كل من دمشق ومصر أسواق عظيمة للوراقين تعرض فيها الكتب للبيع وأحياناً تدور في دكاكينها المناظرات والحوار العلمي بين روادها من المثقفين والأدباء والعلماء (للاستزاده انظر : أحمد شلبي . مرجع سابق ص ٦٢ - ٦٤) .

١٥- محمد محمد أمان . مرجع سابق ص ٥٥ .

١٦- يشير إلى هذا المصدر : محمد محمد أمان . مرجع سابق ص ٥٥ .

١٧- يحيى محمود ساعاتي . الوقف وبنية المكتبة العربية : استبطان للموروث الثقافي . - الرياض : مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية ، ١٩٨٨ . ص١٦ ص٣٣ .

ويعتبر هذا الكتاب من الكتب القلائل الهامة في موضوعه ، وقد تتبع مؤلفه حركة وقف الكتب والمكتبات ودورها في نشر الوعي الثقافي والعلمي بين أفراد المجتمع الاسلامي .

١٨- تذكر زيغريد هونكه في كتابها السابق (ص ٣٨٥) أنه في عام ٨٩١م يحصى مسافر عدد دور الكتب في بغداد بأكثر من مئة وتضيف أن كل مدينة من مدن العالم الاسلامي بدأت تبنى لها دار للكتب يستطيع عمرو أو زيد من الناس استعارة ما يشاء منها ، وأن يجلس في قاعات المطالعة يقرأ ما يريد ، كما ويجتمع فيها المترجمون والمؤلفون في قاعات خصصت لهم ، يتجادلون ويتناقشون كما يحدث اليوم في أرقى الأندية العلمية .

١٩- يذكر القلقشندي عند حديثه عن خزائن الكتب الشهيرة في الاسلام أن أعظمها ثلاث خزائن : خزانة الخلفاء العباسيين في بغداد والفاطميين في مصر والأمويين في الأندلس (انظر القلقشندي . مرجع سابق . جـ ١ ، ص ٤٦٦) .

٢٠- سعيد الديوه جي . بيت الحكمة . - ط ٢ . - الموصل : مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ، ١٩٧٢ . ص ٣٧ - ٣٨ .

وللاستزادة عن بيت الحكمة انظر المراجع التالية :

- أحمد شلبي . مرجع سابق ص ١٨١ ومابعدها .
- يحيى محمود الساعاتي . مرجع سابق ص ٣٢ .

- جلال حسان . العلوم العربية في القرون الوسطى . النشرة الجامعية (جامعة القاهرة) ، ع ٢ (يوليو ١٩٩٣) ص ١٣ - ١٤ .
- عبد الستار الحلوجي . لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات . - ط ٢ . - القاهرة : دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٧٩ ، . ص ٤٨ - ٤٩ .
- محمد ماهر حماده . مرجع سابق ص ٥٧ ومابعدها .

٢١- أحمد شلبي . مرجع سابق ص ١٨٤ .

٢٢- ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن اسحق . الفهرست .- القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى ، ١٣٤٨هـ . ص ١٤ .

٢٣- محمد كرد علي . أمراء البيان . - ط٣ . - بيروت : دار الثقافة ، ١٩٦٩ . ص ١٥٢ .

٢٤- محمد محمد أمان . مرجع سابق ص ٥٧ .

٢٥- دخل الفاطميون مصر سنة ٣٥٨هـ وضموها إلى دولتهم التي أسسوها في تونس وكان ذلك على يد المعز الدين ا لله الفاطمي الذي أسس القاهرة وبنى الجامع الآزهر ، استمرت الخلافة الفاطمية قائمة في مصر حتى قضى عليها صلاح الدين سنة ٥٦٧هـ

٢٦- المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي . الخطط المقريزية .- لبنان : مكتبة احياء العلوم ، د . ت . جـ ٢ ، ص ٣٣٧ .

٢٧- محمد عبد ا لله عنان . الحاكم بأمر ا لله وأسرار الدعوة الفاطمية . - ط ٢ . - القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٩ . ص ١٩٤ .

٢٨- أحمد شلبي . مرجع سابق . ص ١٩٠ .

٢٩- المقريزي . مرجع سابق . جـ ٢ : ص ٣٣٧ .

٣٠- لمزيد من المعلومات انظر :

- محمد عبد الله عنان . مرجع سابق ص ١١٣ .
- محمد ماهر حماده . مرجع سابق ص ١٠٢ .

٣١- انظر :

- هونكة ، زيغريد . مرجع سابق . ص ٣٨٧ .
- المقريزي . مرجع سابق ، جـ ٢ . ص ٣٣٧ ومابعدها .
- الطاهر أحمد مكي . دراسة في مصادر الأدب . - ط ٢ . - القاهرة : دار المعارف، ١٩٧٦ . ص ٦١ .

٣٢- نقلا عن : أحمد شلبي . مرجع سابق ص ١٩١ .

٣٣- الطاهر أحمد مكي . مرجع سابق ص ٦٨ - ٦٩ .

٣٤- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ... . - القاهرة :مطبعة بولاق ، ١٢٨٤ هـ جـ ٤ ، ص ١٤٦ .

٣٥- محمد محمد أمان . مرجع سابق ص ٦٦ .

٣٦- هونكة ، زيغريد . مرجع سابق ، ص ٤٩٩ .

٣٧- أحمد محمود بدر . تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري : عصر الخلافة . - دمشق : مطابع ألف باء ، ١٩٧٤ . ص ١٦٥ .

٣٨- للاستزادة انظر :

- ريبيرا ، خوليان ، التربية الاسلامية في الأندلس ، ترجمة الطاهر أحمد مكي . - القاهرة : دار المعرف ، ١٩٨١ ، ص ١٩١ ومابعدها .
- المقري ، أبو العباس أحمد بن محمد . نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق احسان عباس . - بيروت : دار صادر ، ١٩٦٨ . جـ ٣ ، ص ١١١ .

٣٩- محمد ماهر حماده . مرجع سابق ، ص ١٢٥ .

٤٠- أحمد شلبي . مرجع سابق ، ص ١٤٨ .

٤١- محمد محمد أمان . مرجع سابق ، ص ٥٨ .

٤٢- أحمد شلبي . مرجع سابق ، ص ١٤٨ .

٤٣- لمزيد من التفاصيل انظر :
- محمد محمد أمان . مرجع سابق ، ص ٦٤ .
- أحمد شلبي . مرجع سابق ، ص ١٥٧ ومابعدها .
- عبداللطيف الصوفي . مرجع سابق ، ص ٢٢٠ ومابعدها .
- محمد ماهر حماده . مرجع سابق ، ص ١٥٠ ومابعدها .

٤٤- ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن اسحق . مرجع سابق ، ص ١٤٤ .

٤٥- المقريزي ، تقى الدين أحمد بن علي . مرجع سابق ، جـ ١ ، ص ٤٩ .

٤٦- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد . مرجع سابق ، جـ ٤ ، ص ١٤٦ .

٤٧- أحمد شلبي . مصدر سابق ، ص ١٦٩ .

٤٨- أفراد الدكتور عبد الستار الحلوجي فصلاً ممتعاً وشيقاً عن التجليد والترميم عند المسلمين في كتابه " المخطوط العربي " فليرجع إليه من يريد الاستزادة في هذا العنصر (الصفحات ٢٣٣ - ٢٤٧) .

٤٩- أبو العلاء المعري . رسالة الغفران . - القاهرة : د . ن ، ١٩٠٣ . ص ٧٣ .

٥٠- المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي . مرجع سابق ، جـ ١ ، ص ٤٢٨ .

٥١- عبد الستار الحلوجي . لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات . مرجع سابق ، ص ٥٣ .

٥٢- المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي . مرجع سابق ، جـ ٢ ، ص ٣٣٧ - ٣٣٨

٥٣- نقلا عن : أحمد شلبي . مرجع سابق ، ص ١٧٩ .

٥٤- محمد كرد علي . رسائل البلغاء . - القاهرة : د . ن ، ١٩٤٦ ، ص ٤٧٩ - ٤٨٠

٥٥- ياقوت الحموي . معجم الأدباء ، تحقيق أحمد فريد الرفاعي . - القاهرة : مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٩٣٦ . جـ ١٧ ، ص ١٨٥ .

٥٦- المقري ، أبو العباس أحمد بن محمد . مرجع سابق ، جـ ٢ ، ص ٢٨٠ .

٥٧- ياقوت الحموي . مرجع سابق ، جـ ١٧ ، ص ١٨٥ .

٥٨- المقريزي ، تقى الدين أحمد بن علي . مرجع سابق ، جـ ٢ ، ص ٢٥٤ .

٥٩- أبوشامة ، عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي . كتاب الروضتين في أخبار الدولتين . - القاهرة : مطبعة وادي النيل ، ١٢٨٧هـ . جـ ١ ، ص ٢٦٨ .

٦٠- محمد محمد أمان . مرجع سابق ، ص ٦٣ - ٦٤ .

٦١- أحمد شلبي . مصدر سابق ، ص ١٥٦ .

٦٢- محمد محمد أمان . مرجع سابق ، ص ٦٥ .

٦٣- محمد ماهر حماده . مرجع سابق ، ص ١٩٥ .

(٦٤ ، ٦٥): نقلا عن : محمد ماهر حماده . مرجع سابق ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .